كتاب
المنهج المسلوك
في
سياسة الملوك

تأليف

العلامة الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله من علماء القرن السادس

ألفه

للملك الناصر صلاح الدين يوسف

طبع على نفقة احمد زكي ابو شادي

ومحمد رشدي افندي الخبير بالمحاكم الاهلية

طبع بمطبعة الظاهر امام محكمة الاستئناف بالقاهرة سنة ١٣٢٦ هجرية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي عجزت العقول عن معرفة ذاته ، والافكار عن الاحاطة بكنه صفاته ، وتحيرت الابصار في بدائع مصنوعاته ، وشهدت له بالوحدانية عجائب أرضه وسمواته . وبعد فاحمده على مننه العظام ، وأياديه الجسام ، حمد معترف بسوابغ الانعام ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لاشريك له الها منعوتا بالجلال ، موصوفاً بالكمال ، منزهاً عن الحركة والسكون والانتقال ، مقدساً عن الجسم والشبح والخيال ، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله ، أرسله ببرهان لامع المنار ، وقرآن ساطع الانوار ، قاطع بأعجازه حجج الكفار ، وقامع بايجازه ألباب أولي الافكار ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله الاطهار ، صلاة قائمة بالعشي والابكار ، وبعد قال عبد الرحمن بن عبد الله : لما كان المولى الناصر صلاح الدين يوسف ملك الاسلام والمسلمين ، أبو المظفر ابن أيوب بن شادي مجده أمير المؤمنين ، أدام الله دولته ، وحرس على الاسلام طلعته ، قد أتاه الله ملكه العظيم ، وهداه صراطه المستقيم ، وأورثه مشارق الارض ومغاربها ، وأوطأه من الملوك رقابها ومناكبها ، ممن يعز الادب وفضله ، ويؤثر العلم وأهله ، ضمنت لخزانة علومه هذا الكتاب ، وهو يحتوي على طريق من الحكمة ، ومن الادب وأصول

من السياسة ، وتدبير الرعية ، ومعرفة المملكة ، وقواعد التدبير ، وقسمة الفيء ، والغنيمة على الاجناد ، وما يلزم الجيش من حقوق الجهاد ، ونبهت فيه على الشيم الكريمة ، والاخلاق الذميمة ، وأشرت فيه الى فضل المشورة ، والحث عليها وكيفية مصابرة الاعداء ، وسياسة الجيش ، وأودعته من الامثال مايسبق الى الذهن شواهد صحتها ، ومعالم أدلتها ، مع نوادر من الاخبار ، وشواهد من الاشعار ، وفصلته أبوابا تتضمن حكايات لائقة ، ومواعظ شائقة ، وحكما بالغة ، وسلكت في ذلك كله طريق الاختصار ، ومذهب الايجاز ، لئلا تمجه الخواطر ، وترفضه الاسماع ، وسميته « المنهج المسلوك في سياسة الملوك » وكنت في ايداعه خزانة علومه ، كمهدي الماء الى هجر ، أو الكافور الى قيصور ، ولكن قصدت بذلك ايصال الحكمة لاهلها ، وأن أضعها في محلها ، وبالله اعتصم ، وعليه التوكيل ، وهو عشرون بابا ، وبالله التوفيق وهو حسبي ونعم الوكيل حسبي الله

الباب الاول

في بيان افتقار الرعية الى ملك عادل

قال عبد الرحمن : لما كانت الرعية ضروبا مختلفة وشعوبا مختلطة متباينة الاغراض والمقاصد متفرقة الاوصاف والطباع، افتقرت ضرورة الى ملك عادل يقوم بأودها ويقيم عمدها ويمنع ضررها ويأخذ حقها ويذهب عنها ما أشقاها ومتى خلت من سياسة تدبير الملك كانت كسفينة في البحر اكتنفتها الرياح المتواترة والامواج المتظاهرة قد أسلمها الملاحون واستسلم أهلها الى المنون. واعلم أن الرعية تستظمىء الى عدل الملك وتدبيره استظماء أهل الحرث الى الغيث الوابل وينتعشون بطاعته كانتعاش النبت بما يناله من ذلك القطر، بل الرعية بالملك اعظم انتفاعاً منها بالغيث لان للغيث وقتاً معلوماً وسياسة الملوك دائمة لاحد لها ولا وقت، والرعية في تباين أوصافها كنبات الارض فمنه الطيب المثمر ومنه الخبيث القاتل فما كان منه طيباً فانه لا تزكو أصوله في أرضه ولا تندي فروعه اذا جاوزه الخبيث فيها لان الخبيث يسبق مادته في القرار فيشربها وتكثف فروعه في الفضاء فلا يصل الى الطيب حظه من النسيم فاذا أصلحت الارض وأخرج مافيها من النبت الخبيث انتعش نبتها الطيب وقوي أصله ونما فرعه وطاب ثمره، وكذلك الرعية لما جاور الخبيث طيبها افتقرت ضرورة الى ملك يصلح فاسدها ويقمع صائلها ويكسر شوكة أهل التعدي عليها لتنتعش أحوالها وتزكو أموالها ويكثر خيرها وتصلح أمورها، وقد قيل الرعية بلا وال كالانعام بلا راع فانظر سائمة الانعام في مراعيها اذا خلت من راعيها ما أشد اختلال حالها واختلاف أفعالها!! بل الرعية أشد اختلالا واكثر اختلافا فلا بد من

سلطان يمنعهم من المظالم ويفصل بينهم في التنازع والتخاصم ولولاه لكانوا فوضى مهملين وهمجاً مضاعين وقال الافوه الاودي

لاتصلح الناس فوضى لاسراة لهم ولا سراة اذا جهالهم سادوا
والبيت لاينبني الا بأعمدة ولا عماد اذا لم ترس أوتاد
ان تجتمع فيه أوتاد وأعمدة لاشك نال أهالوه الذي رادوا

الباب الثاني

في فضل الادب وافتقار الملك اليه

قال عبد الرحمن لما اقتصرت الرعية في تدبيرها الى تدبير الملك وكان الادب مجموع خلال حميده وخصال جميله افتقر اليه الملك ضرورة لتصدر عنه تصاريف التدبير في المملكة على قانون العدل الذي به دوام المملكة فقد قيل من حسنت سياسته دامت رئاسته، واعلم ان الادب أحد الاوصاف الاربعة التي يشترط قيامها بالملك في تدبير المملكة على ماسنوضحه في موضعه فاذا خلي الملك منه اختلت سياسته وتدبيره ،وقيل الادب صورة العقل فمن لا أدب له لاعقل له ومن لاعقل له لاسياسة له ومن لاسياسة له لاملك له، وقال بعضهم قرأت في التوراة: أحسن الحلية الحسب ولا حسب لمن لامروءة له ولامروءة لمن لاعقل له ولا عقل لمن لا أدب له ،وقال بعض الحكماء الادب عصمة الملوك لانه يمنعهم من الظلم ويردهم الى العلم ويصدهم عن الاذية ويعطفهم على الرعية فمن حقه أن يعرفوا فضله ويعظموا أهله : وقال بعض الحكماء ليس للمرء أن يفخر بحلة جليلة نالها بغير عقل ، ومنزلة رفيعة جلبها بغير أدب ، فان الجهل ينزله منها ويزيله عنها ويحطه الى رتبته ويرده الى قيمته بعد أن تظهر عيوبه وتكثر ذنوبه ويصير مادحه هاجياً ووليه معادياً ،وكان يقال عقل الاديب أبداً في

ارشاد ورأيه في سداد فقوله سديد، وفعله حميد وقال رجل من قيس لسيد من قريش أطلب الادب فانه زيادة في العقل وكمال في المنصب ودليل على المروءة وصاحب في العزلة وصلة في المجالس، ويقال

أدب المرء كلحم ودم ماحواه جسد الا صلح
لو وزنا رجلا ذا أدب بألوف من ذوي الجهل رجح

وكان يقال: الادب مال واستعماله كمال: وأوصى ملك ولده فقال: يابني خصلتان يسود بهما المرء ان كان غير ذي مال. العلم والادب. يابني جالس الكبراء وخالط العلماء فان مؤاخاتهم كريمة ومجالستهم غنيمة وصحبتهم سليمة، واوصى رجل ولده فقال: يابني عليك بالادب فانك ان كنت غنياً كنت شريف قومك وان كنت محتاجاً لم يستغن عنك ويحتاجك رؤوساء البلاد واشرافهم وقيل من قعد به نسبه نهض به ادبه وقال بزرجمهر ما أورث الاباء أبناءهم شيئاً أفضل من العلم والادب لانهم اذا أورثوهم الادب والعلم اكتسبوا بهما الاموال ونالوا بهما على المراتب واذا أورثوهم الاموال اضاعوها وبقيوا هم عدماً من قلة الادب وكان يقال الادب خير ميراث وحسن الخلق خير قرين والتوفيق خير قائد والاجتهاد اربح تجارة ولا مال اغنم من العقل ولا عقل أوثق من المشورة ولا فقر أشد من الجهل، وقيل الادب ثوب جديد لايبلى والعلم كنز عظيم لايفنى، وقيل من أدب ابنه ارغم عدوه وقيل ثلاثة ليس معهن غربة حسن الادب ومجانبة الريب وكف الاذية، وقال نصر بن سيار كل شيء يبدأ صغيرا ثم يكبر الا المصيبة فانها تبدو كبيرة ثم تصغر وكل شيء يرخص اذا كثر الا الادب فانه اذا كثر غلا واعلم ان فضل الادب اشهر من ان يسطر وفي النفس الابية باعث اليه اذا كانت تأبي ضده وتكره مخالفته وله قواعد تبنى عليها اركانه سنذكرها ان شاء الله تعالى

الباب الثالث

في معرفة قواعد الادب

لما كان الادب وصفاً مشروطاً للملك في تدبير المملكة افتقر في ذلك الى معرفة قواعده الذي لا يتحق بدونها ولا ينبنى الا عليها، وهما قاعدتان لا يسع للملك تركهما اذ هما أصلان في السياسة والتدبير، القاعدة الاولى العلم. اعلم ان العلم باحكام الدين وضبط الشريعة واجب على كل مسلم وعلى الملوك أشد وجوباً لافتقارهم الى اقامة الحدود الشرعية وأخذ الحقوق من وجوهها وصرفها الى أربابها واجهاتها ليتحقق منهم العدل الذي قامت به السموات والارض ومتى كان الملك جاهلاً من تدبيره كان ذلك هدماً لقواعد المملكة، وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه من عمل بغير علم كان مايهدم أكثر مما يبني وقال عبد الرحمن ـ ولا محالة اذا كان ملك المدينة خالياً من العلم ركب هواه وتخبطه ما يليه اذ لا تحجبه فكرة سليمة ولا تمنعه حجة صحيحة ويكون كالفيل الهايج في البلد القفر لا يمر بشيء الا تخبطه واذا كان الملك عالماً كان له من علمه رادع يقمع هواه ويميل به الى سنن الحق كالفيل الهايج اذا خرج من البلد القفر الى الانيس ذللته السلسلة وقهرته الكلاليب حتى تحمل عليه الاثقال، وقال بعض الحكماء الملك اذا لم يطرزه علم كان مذلة آجله والعلم اذا لم يؤيده عقل كان مضلة عاجله، وكان يقال اذا أراد الله بأمة خيراً جعل العلم في ملوكهم والملك في علمائهم، وقال بعض الحكماء العلم عصمة الملوك لانه يمنعهم من الظلم ويردهم الى الحلم ويصدهم عن الاذية ويعطفهم على الرعية، وقال ابن عباس رضي الله عنه ان سليمان بن داود عليهما السلام خيره الله تعالى بين العلم والملك فاختار العلم فاعطاه الله تعالى العلم والملك جميعاً وأوصى ملك من ملوك اليمن ولي عهده فقال: اتق من فوقك يتقك من تحتك

وكما تحب ان يفعل معك فافعل برعيتك فانظر كل حسن فافعله واستكثر من مثله وكل قبيح فارفضه وبالنصحاء يستبين لك ذلك وخيرهم أهل الدين وأهل النظر في العواقب، واستكثر من العلم فانه أساس التدبير وما ليس له أساس فمهدوم وانما رأيت الملوك تؤتى من ثلاثة أمور فاحسم عنك واحداً وأحكم اثنين وهي اتباع الهوى وتولية من يستحق وكشف أمور الرعية فانك ان ملكت هواك لم تستأثر ولم تعمل الا بالحق وان وليت المستحق كان عوناً لك على ما تحب ولم تضيع على يديه الامور واذا تناهت اليك أمور رعيتك فاستفهم من الوضيع في حق الرفيع وأمسك المظالم وآمن المظلوم والسالم ، وحكي ان عبد الله بن صالح ابن علي دخل بغداد على بعض شباب بني العباس فحادثه فوجده على خلاف ما عهد اليه اسلافه فساءه ذلك فلما خرج من عنده قال ان الجهل يحط أولي المراتب ويصغر ذوي المناصب ثم أنشد

تعلم فليس المرء يولد عالماً وليس أخو علم كمن هو جاهل
وان كبير القوم لا علم عنده صغير اذا التفت عليه المحافل

وقال بعض العلماء ، الجهل مطية من ركبها زل ومن صحبها ضل وانشدني بعض أهل العلم شعراً في المعنى

احفظ العلم ما استطعت فا: لك ان كنت خاملا رفعك
اترك الجهل ما استطعت فا: لك ان كنت عاليا وضعك

وقال بعض العلماء ، من غرس العلم اجتنى النباهه ومن غرس الزهد اجتنى العزة ومن غرس الاحسان اجتنى المحبة ومن غرس الفكرة اجتنى السلامة ومن غرس الكبر اجتنى المقت ومن غرس الحرص اجتنى المذلة ومن غرس الطمع اجتنى الخزي ومن غرس الحسد اجتنى الكمد — القاعدة الثانية من قواعد الادب نهي

النفس عن الهوى وذلك لازم للملك في التدبير لان صواب الرأي وخطأه انما يكون بحسب قوة التخيل الفكري وضعفه فمن قوى تخيل فكره كان على سلطان الهوى غالباً وانما يضعف التخيل الفكري اذا استولت على النفس الشهوات فيحتجب العقل عن صواب الرأي . فاذا قهر الملك نفسه عن هواها ومنعها شهواتها الضارة بها ونهاها ظهر له صواب الرأي والتدبير في أمره بالعقل . ومتى لم يملك الملك ضبط نفسه عن هواها وهي واحدة لم يملك ضبط حواسه وهي خمس واذا لم يملك ضبط حواسه مع قلتها وذلتها صعب عليه ضبط الخاصة من أعوانه والعامة مع كثرة جمعهم وخشونتهم ، ومن لم يضبط خاصته من أعوانه وهم نصب عينيه لم يضبط عامته من رعيته في أقاصي بلاده وأطراف مملكته ، وليس للادمي عدو أقوى من نفسه فيقهر الادمي نفسه بقهر حواسه الخمس لانها أعوان النفس ودليلها على الشهوات الموبقة . وقد رأينا قوة الحاسة الواحدة منهن على انفرادها اذا أتت على نفس من النفوس القوية الحذرة ألهتها عن مصلحتها حتى توردها موارد الموت فكيف اذا اجتمعت خمس على نفس واحدة ؟ فمن ذلك ان الظبي مع شدة نفوره اذا سمع صوت أواتي القفر مع تواتر النقرات واصطحابها ألهاه سماع ذلك عما يراد به فيلبث في مكانه حتى يأتيه الصياد فيقبضه . والفيل مع عظم جسمه وشدة قوته يلهيه لين اللمس ويذهله عن نفسه حتى تنصب له المصائد فيصاد ويذل ويركب عنقه ، والجراد الذي يستكن من حر الشمس اذا رأى ضوء النار أعجبه نورها وحسن منظرها فيلهيه ذلك حتى يلقي نفسه فيها فتحرقه ، وذباب الورد المتتبع لطيب الروايح يطلب ما يقطر من أصل أذن الفيل عند هيجانه فانه يكون في طلب رائحة المسك ولا يهوله تحريك أذن الفيل بل يلهيه شم ذلك عن الاحتراز حتى يلج في أصل أذنه فتقع عليه الاذن فتقتله . والسمك في البحر

يسلبه ذوق الطعم ويلهيه عن الصنارة التي فيها اللحم فيبلعها فيكون فيها حتفه ، فمن ملك هذه الحواس الخمس فقد ملك نفسه ومن ملك نفسه حسنت سياسته ودامت رئاسته ومن أعطى نفسه هواها باتباع ملاذ شهواتها اشتغل عن تدبير مهماته فتخل أمور دولته وتحل عرى مملكته ، وسئل رجل من بني أمية عن سبب زوال دولتهم فقال مثل ما قال بزرجمهر . شغلتنا لذاتنا عن مهاتنا وقل عطاؤنا لجندنا فقل ناصرنا وجرنا على أهل خراجنا فدعوا علينا وطلبوا الراحة منا واشد من ذلك انا استعملنا صغار العمال على كبار الاعمال فآل ما لكنا الى ما آل ، وقال بعض الحكماء العقل كالزوج والنفس كالزوجة والجسم كالبيت لهما فاذا كان سلطان النفس غالباً قاهراً اشتغلت النفس بمصالح الجسم اما لمنفعة تجلبها أو لمضرة تجتنبها كاتشتغل الزوجة التي قهرها زوجها بمصالح بيتها العائدة عليها وعلى زوجها ، وان كان سلطان النفس على العقل غالباً كان سعي النفس فاسداً ونزعاتها مذمومة كفعل الزوجة التي قهرت زوجها ، وكان يقال ان الملك الحازم يخاف ظهور عدوّه عليه حتى يتجاوز عدوه قضايا العقل الى قضايا الهوى فحينئذ يبشر بالغلب و يثق بحسن المنقلب ، وكان يقال الهوى كالنار اذا عسر ايقادها عسر اخمادها والسيل اذا اتصل مدة تعذر رصده ، وقال المأمون ، الهوى يبين من الاخلاق قبائحها و يظهر من الافعال فضائحها ولهذا شعر

اذا ما رأيت المرء يقتاده الهوى   فقد ثكلته عند ذاك ثواكله

وقد أشمت الاعدا جميعا بنفسه   وقد وجدت فيه مقالاً عواذله

وما يزع النفس الحرون عن الهوى   من الناس الا حازم الرأي كامله

وقال ازدشير ـ ما استعان ملك على رعيته بعدل أفضل من مجانبته الهوى واوصى رجل وَلده فقال يابني اعص هواك والنساء وافعل ماشئت ، وكان يقال

اذا غلب عليك عقلك فهولك واذا غلب عليك هواك فهو لعدوك. وقال بعض الحكماء أكثر مخالفة الهوى فان النفس امارة بالسوء تكره مالها وتحب ماعليها ولا يسلم من الندم من استنصح الهوى والنفس ولهذا شعر

اذا انت لم تعص الهوى قادك الهوى　　الى بعض مافيه عليك مقال

واوصى ملك من ملوك حمير اخاه فقال : لا يكن الافراط من شأنك في نكال ولا نوال فانه من النكال يجحفك ومن النوال يؤثمك واذا أنكرت نفسك فأمسك وغالب هواك فانه اضر ما اتبعت واعمل بالحق فانه لايضيق مع شيء ولا يتعب فيه عاقل ولا يعقبك فيه تبعة وليكن خوف بطانتك لك اشد من أنسهم بك. واوصى ملك من العرب ولي عهده فقال : كن بالحق عمولا وعما جهلت سؤولا واول شيء تؤدب به نفسك منعها عن شهواتها وردعها عن هواها فلا شيء اضر بالمملكة من اتباع الهوى واخفض عن الامور يظهر لك حقائقها واستبطن اهل التقوى وذوي الاحساب تزين نفسك وتحكم امرك واياك وقبول التزكية فيما لاتشك انك مكذوب فيه فانها خدعة تتبعها صرعة ولاتضع سرك الا عند من يكتمه ولا تثق برجل تتهمه ولاتعوّد لسانك الخنا ولاتكلف نفسك مالا تقوى عليه واذا هممت بخير فعجله واذا هممت بخلافه فتأن فيه واياك وكثرة التأني فمن تأنى على الله أكذبه وارحم ترحم شعر

قد يدرك الحازم ذو الرأي المنا　　بطاعة الحزم وعصيان الهوى

الباب الرابع

في معرفة اركان المملكة

اعلم ان المملكة تبنى على قاعدة كلية لاقوام لها بدونها ولاتثبت الاعليها وهي منها بمنزلة الرأس من الجسد فكما لابقاء للجسد بعد الرأس كذلك لابقاء للمملكة بدون هذه القاعدة ، وهذه القاعدة لها أركان خمسة بها قوام القاعدة فاذا إنتقص منها ركن اوهن القاعدة وأفضى الى اضطرابها فتنحل المملكة كما ان النفس يقوم بها أركان خمسة وهي الغذاء والشحم والدم والمخ والعظم فاذا انتقص منها ركن في شخص بطل عنه البواقي وخرج عن السلامة ، وهذه القاعدة واركانها الخمسة لها أساس لا تثبت الا عليه فاذا اتسع هذا الاساس اختلت الاركان واضطربت القاعدة وأفضى الامر الى هدم الجميع وسنوضح ذلك ان شاء الله تعالى ، أما القاعدة التي تبنى عليها المملكة فهي الملك المنتصب لتدبير الرعية وسياسة الملك ، ويقيمه أوصاف أربعة لاينفك عنه واحدة منهن وهي ادبه وعقله وعدله واقدامه ، فاذا عري عن شيء من ذلك ذهبت قوته وضعفت عن عمل المملكة كالطبائع الاربع المركبة في جسد الانسان لاقوام لها الا بها فاذا خلا عن واحدة منهن انحل تركيب الجسم وزهقت منه النفس فاذا استقام الملك بهذه الاوصاف قامت به المملكة ، والركن الاول من اركان المملكة هو الوزارة وهو على ضربين وزارة تفويض ووزارة تنفيذ فاما وزارة التفويض فهو أن يستوزر الملك من يفوض اليه تدبير الامور برايه لان ماوكل الى الملك من تدبير الرعية لايقدر على مباشرة جميعه الا بالاستعانة ، وأما وزارة التنفيذ فالنظر فيها مقصور على رأي الملك وتدبيره والوزير هو واسطة بين الملك وبين الرعية يؤدي عنه ما أمر به وينفذ ما ذكر ويمضي ما حكم ويخبر عنه بتقليد الولاة وتجهيز الجيوش ويعرض

عليه ماورد من أمرهم وماتجدد من حدث ملم، ولا مندوحة للملك عن نظر الوزير واستعمال رأيه فيما يجهله من امور التدبير والوقائع الحادثة، وقد روت عائشة رضي الله عنها ان النبي صلى الله عليه وسلم قال: من استعمل على عمل واراد الله به خيرا جعل له وزير صدق ان نسي ذكره وان ذكر اعانه: وقد ينجو المغلوب من الملوك برأي وزيره حتى يغلب من غلبه بقوة رأيه وان كان ضعيفاً بلطف حيلته والغالب له أقوى منه، واعلم انه لابد للوزير أن يستعمل فيه عشرة أوصاف الاول العلم لان تدبير الجاهل يقع مخالفاً للشرع فيكون وبالا، الثاني السن لان الشيخ حنكته التجارب وعركته النوائب وشاهد من اختلاف الدول ونزول الحوادث ما اوضح لعقله صواب الرأي في التدبير، الثالث الامانة حتى لايخون فيما اؤتمن عليه ولا يغش فيما استنصح فيه، الرابع صدق اللهجة حتى يوثق بخبره فيما يؤديه ويعمل بقوله حتى ينهيه، الخامس قلة الطمع حتى لايرتشي ولا ينخدع، السادس أن يصلح وان يسلم فيما بينه وبين الناس من عداوة أو شحناء لان العداوة تصد عن التناصف وتمنع من التعاطف، السابع أن يكون ذكوراً لما يؤديه الى الملك أو ينقله عنه لانه شاهد له وعليه، الثامن الذكاء والفطنة حتى لايدلس عليه فيشتبه ولا تموه عليه الاحوال فتلتبس لان الامور لايصح مع اشتباهها عزم ولا يتم مع التباسها حزم التاسع ان لايكون من أهل الاهواء فيخرجه الهوى من الحق الى الباطل ويتدلس عليه المحق من المبطل لان الهوى خادع الالباب وصارف عن الصواب، العاشر أن يكون من أهل الكفاءة فيما وكل اليه من أمر الحرب والخراج خبيرا بهما عارفاً بتفصيلهما فلا يكون مباشرا لهما تارة ومسيباً تارة اخرى وعلى هذا الوصف مدار الوزارة وهذه الاوصاف العشرة بها تنتظم امور السياسة ومتى لم تجتمع في الوزير هذه الاوصاف العشرة كان تدبيره ناقصاً بقدر ما نقص منها، وحكي أن

المأمون كتب في اختيار وزير : اني التمست لنفسي وتدبير اموري رجلا جامعاً لخصال الخير ذا عفة في خلائقه واستقامته في طريقه قد هذبته الاداب وحنكته التجارب ، ان اؤتمن على الاسرار قام بها وان قلد مهمات الامور نهض فيها يسكته الحلم و ينطقه العلم وتكفيه اللحظة وتغنيه اللمحة له صولة الامراء واناة الحكماء وتواضع العلماء وفهم الفقهاء ان احسن اليه شكر وان ابتلي بالاساءة صبر لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده يسترق قلوب الرجال بحلاوة لسانه وحسن بيانه : قال عبد الرحمن وهذه الاوصاف ان كملت في الوزير فقل أن يكمل في الصلاح بنظر عام و بتدبير تام وان اختلفت فالصلاح بحسب نقصها مختل والتدبير على قدرها معتل . وقد كان الفضل بن سهل وزير المأمون يبعث أصحابه الى البلاد عيونا يسمعون ما تقول الناس فيه من خير او شر فيطالعونه بذلك فما سمع من خير ازداد منه وما سمع من عيب فيه ازاله . وان وفدا قدموا على المأمون من بلاد الروم فاكرمهم فلما رجعوا الى بلادهم قال عقلاؤهم ما رأينا مثل المأمون جلالة وعقلا ولا رأينا مثل وزيره في سمته وكمال اوصافه لولا انه حديث السن ومن شأن الملوك ان يستوزروا المشايخ الذين اجتمعت لهم الحيلة والرئاسة والعلم والتجربة . فاخبره اصحابه بذلك قال فاحتجب ثلاثة ايام في داره يعالج لحيته حتى ظهر للناس وهي بيضاء ولا يجوز ان يكون الوزير امرأة لقوله صلى الله عليه وسلم - ما افلح قوم اسندوا امرهم الى امرأة - الركن الثاني من اركان المملكة الرعية ، اعلم ان الرعية ركن شديد من اركان المملكة وهي قسمان خاصة وعامة والخاصة قسمان متصنع في خدمة الملك ومطبوع على الانكماش والقيام بحقوق الخدمة . فليعرف الملك المتصنع منهم والمطبوع فان العون من الخاصة المتصنع في خدمته يكون في أول ذلك نشيطاً مواظباً للخدمة ثم يدركه فتور الطبيعة وقصور الهمة فيفتر عما يتعاطاه أولاً ويذهب

تصنعه ، والمطبوع على الانكماش في الخدمة يكون نشطاً في كل وقت مثل نشاطه في أول خدمته،واما العامة فهم ثلاث طبقات، أخيار وأشرار ،ومتوسطون بين ذلك، ولكل طبقة منهم سياسة سنذكرها في مواضعها ان شاء الله تعالى،والمطلوب من الرعية طاعة الملك وذل الجانب وعمارة البلاد واداء الحقوق،وانما يحصل ذلك بنشر العدل عليهم على ما سنذكره في بابه ان شاء الله تعالى — الركن الثالث من اركان المملكة القوة ،فقوة الملك تنقسم الى ثلاثة أقسام ، احدها قوة رتبته في الناس وهيبته عليهم وما يقع في نفوسهم من عزته وسطوته واستعلائه وقدرته،الثاني قوة احتماله بنفسه لما يرد عليه من الامور واستقلاله بذلك ، الثالث قوة التدبير لامور المملكة والنفاذ فيها بحسن نظر العواقب في الامور، اما القوة الاولى فتحصل بحسن السياسة على ماسنذكره في موضعه ،والقوة الثانية تحصل بأدب النفس كما ذكرناه في الباب الذي قبله والثالثة تنقسم على ثلاثة اقسام احدها تدبير ابرام الامور بعد الاحتيال فيها ووضع الاصول لها ، الثاني تدبير معرفة الوقوف على الامر الذي لا يوجد للتدبير فيه حيلة حتى لا يصير الى ما يصير اليه ثم يطلب الحيلة فيه بعد ذلك،الثالث تدبير ما لا حيلة فيه. واعلم ان أفضل هذه القوى قوة التدبير، فاما الامر الذي لا حيلة فيه ولا رفق فالحيلة فيه الصبر واللين لان متعاطي الشدة فيه ينقلب اللين عليه اذا لم يرفق. ألا ترى ان ذا القوة لقوته يناله الضرر من سباحة الماء على ليونته ولم يقطعه بقوته فاذا رفق سهل عليه عبوره الماء وأمكنه قطعه وكذلك من حاول ان يقعد بكفه على الهواء صعب عليه ولم يجد الى ذلك سبيلا ولو أن الفيل بقوته تعاطى ثلم الجبل بنابه انكسر ولم يؤثر في صفوانه شيئاً ،والرجل على ضعفه برفقه وحيلته يتخذ من الجبل الصلد مسكناً وقد يذيب الحديد الشديد برفقه وحيلته . واعلم ان الملك القوي قد ينبو عن حد قوته اذا لم يعنه رفق

كما ينبو حد السيف عن ضربته وان كان من الحديد الشديد حتى يسقى
من الماء الذي هو لين سيال فتشحذ مضاربه حتى اذا حمل على الحديد الذي هو
من جنسه قطعه كله، ذلك انما يحصل بالرفق دون الخرق وسنوضح كيفية التدبير
في مواضعه ان شاء الله تعالى — الركن الرابع من اركان المملكة المال، اعلم ان بيت
المال ركن عظيم للمملكة تتعلق به المصالح الكلية من ارزاق المقاتلة والولاة
وأعوانهم وتجهيز الجيوش وارزاق الفقراء والمساكين واهل العلم وسد الثغور وبناء
المعاقل والحصون وغير ذلك مما تقوم به مصالح الرعية، وبقدر زيادته ونقصانه
يكون حال المملكة وناموس الملك عند نظرائه وخاصته واعوانه، لانه ذخيرة
يرجع اليها الملك والاعوان والرعية عند نزول الحوادث، فاذا اشتهر بكثرة أنواع
الاموال واختلاف أجناس الجواهر اشتد أزر الرعية وقويت نفوس الجند وعظم
قدر الملك عند أمثاله، واذا اشتهر بالنفاد والقلة صغر قدر الملك واختلت امور
الملك وطمع فيه أعداؤه، فيجب حفظ بيت المال واحتياطه عليه بتوليته الثقاة وأهل
الامانة ويتوقى الملك الاسراف في بذله وصرفه الى غير أهله، ولا يمنعه أهل
الحقوق فيحصل بذلك الزلل ويتطرق اليه الخلل سيما الجند وأعوانه فان تقتير
الارزاق يفضي بالملك الى المهالك، وقد كان يقال المال ناموس الملك تظهر به
هيبته وتقوى أبهته، حكي أن سابور ملك الفرس اتخذ أعمدة وقواعد من الذهب
وجعلها على باب خزانة المال يجلس عليها الخزنة وغيرهم، فعظم بذلك عند نظرائه
وأهل مملكته، فلما أفضت المملكة الى ولد ولده جعل يفرق الاموال ويسرف
في العطايا، فلما نفدت تلك الاموال أخذ تلك الاعمدة وسبكها فوجدها مجوفة
وقد ملئت رملا، فذهب حينئذ ناموسه وتظاهرت أعداؤه وقلت هيبته عند
أهل مملكته حين علموا سر هذه الاعمدة، وحكي عن بعض ملوك مصر انه أخذ

جبابا من الخزف وملأها ذهباً ثم سبكه ثم كسر الخزف وازاله، فبقي كهيئة الجباب ثم جعلها على باب قصره يجلس عليها الناس وسماها الحسرات، وانما قصد ذلك أيضاً لاقامة ناموس مملكته وتقوية نفوس جنده، فلهذه المعاني يجب حفظ المال والاحتياط عليه — الركن الخامس من أركان المملكة الحصون، اعلم ان الحصون التي يتحصن بها الملوك ويمتنع بها جانبهم تنقسم الى خمسة أقسام كل نوع منها يحصل به التحصن وامتناع الجانب، وهي المال والجبال والمفاوز والقلاع والرجال وأحصن هذه الحصون الرجال ثم القلاع، وتحصين الرجال بالاموال، وأفضل الاموال الاطعمة، وجمع الاطعمة وتحصيلها انما يتحقق بالعدل، قيل كان مكتوباً على منطقة بعض ملوك الفرس، لاملك الا برجال ولا رجال الا بالمال ولا مال الا بالرعية ولا رعية الا بالعدل، وقالت ام جيفونة ملكة طبرستان لنصر بن سيار الملك الحازم من اتخذ الى نفسه سبعة أشياء، حصن يلجأ اليه اذا تظاهر عليه نُظراؤه، ووزير صالح يثق برأيه ويفضي بسره اليه، وذخيرة خفيفة الحمل يرجع اليها عند النوائب، وفرس يثق بجريه اذا داهمته الاعداء، وسيف اذا نازل الاقران لم يخف أن يخونه، وامرأة حسناء اذا دخل عليها ذهب همه، وطباخ اذا لم يشته الطعام صنع له مايشتهيه. وكتب ملك الى حكيم فقال: دلني على ماتبقى به المملكة؟ فقال ـ واختصر في ذلك بأربعة أشياء ـ حصن شاهق ووزير حاذق ومال وافر وعدل عامر. وبلغ بعض الملوك حسن سياسة ملك فكتب اليه: قد بلغت من السياسة مالم يبلغه ملك قبلك فدلني الى ذلك؟ فكتب اليه: اني تحصنت بالرجال وحصنت الرجال بالاموال ولم أهزل في أمر ونهي ولا وعد ولا وعيد وأودعت القلوب هيبة لم يشبها مقت وودّاً لم يشبه كذب واخذت بالقوة ومنعت بالفضل. وسأل ملك من ملوك الفرس حكيما من حكمائهم: ماعز الملك؟

فقال الطاعة ، قال فما سبب الطاعة ؟ قال التودد الى الخاصة والعدل في العامة ، قال فما حصن الملك ؟ قال وزراؤه واعوانه فانهم اذا صلحوا صلح الملك واذا فسدوا أفسد الملك ، قال فما سبب صلاحهم ؟ قال البذل والانعام والاحسان الشامل ، قال فأي الامور احمد للملك ؟ قال الرفق بالرعية وأخذ الاموال من غير مشقة واداؤها اليهم عند أوانها وسد الثغور وأمن السبل وانصاف المظلوم من الظالم وزجر القوي عن الضعيف ، قال فأي خصلة تكون في الملك أنفع ؟ قال الصدق في جميع الاحوال — وأما الاساس الحامل للمملكة فهو الدين ؟ اعلم ان الدين أساس المملكة لاقوام لها الا به ولا تثبت أركانها الا عليه وهو اقامة منار الاسلام واظهار شعائر الحق واتباع أحكام الشرع والعمل بالفرائض والسنن ومندوبات الشريعة واقامة الحدود وامتثال أمر الشارع والانتهاء عن نواهيه وايصال الحقوق الواجبة الى أربابها والعمل بما يرضي الله تعالى سراً وعلانيه ، فانه لادوام للملك بغير هذه الاشياء . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصلح سريرته أصلح الله علانيته ومن اصلح فيما بينه وبين الله اصلح الله فيما بينه وبين الناس . وحكي أن ازدشير قال لولده : ان الملك والدين اخوان لاغنى لاحدهما عن الآخر ولاقوام له الا به الدين أس والملك حارس فمن لم يكن له أس فمهدوم البناء ، ومن لم يكن له حارس فضائع يابني اجعل مرتبتك مع أهل المراتب وعطيتك لاهل العلم ولاهل الجهاد وبشرك لاهل الدين وبرك لمن يعنيه ماعناك من أهل العقل . قال الاحنف بن قيس : من هدم دينه كان لمجده أهدم ومن ظلم نفسه كان لغيره أظلم . وقال بعض الحكماء الدولة بلا دين كالبناء على الثلج

الباب الخامس

في معرفة الاوصاف الكريمة وفضلها وحث الملك عليها

ينبغي للملك المنتصب لتدبير الرعية أن يتصف بالاوصاف الكريمة و يتلبس بها ويجعلها له خلقا مطبوعا ولا يهمل منها وصفاً واحدا اذ بها قوام دولته ودوام مملكته، وهي خمسة عشر وصفا. العدل. العقل. الشجاعة. السخاء. الرفق. الوفاء. الصدق الرأفة . الصبر . العفو . الشكر . الاناة . الحلم . العفاف الوقار . وسنشرح فضل هذه الاوصاف وما يتعلق بها من المصالح الكلية في تدبير المملكه .

الوصف الاول العدل . اعلم أن العدل أفضل أوصاف الملك وأقوم لدولته لانه يبعث على الطاعة ويدعو الى الالفة وبه تصلح الاعمال وتنمي الاموال وتنتعش الرعيه وتكمل المزيه ، وقد ندب الله عز وجل الخلق اليه وحثهم عليه — قال الله تعالى ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون — قال الحسن : الله تعالى جمع الخير كله والشر كله في هذه الآية ، وقال ان استقامة الملك بالثلاثة المأمور بها في الآية واضطرابه بالثلاثة المنهي عنها فيها . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلاث منجيات وثلاث مهلكات فاما المنجيات فالعدل في الغضب والرضى وخشية الله تعالى في السر والعلانية والقصد في الغنى والفقر ، وأما المهلكات فشح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه . وحكي ان الاسكندر قال لحكماء الهند وقد رأى قلة الشرائع في بلادهم : لم صارت سنن بلادكم قليلة؟ قالوا : لاعطائنا الحق من أنفسنا ولعدل ملوكنا فينا، فقال لهم أيهما أفضل العدل أم الشجاعة ؟ قالوا اذا استعمل العدل استغنى عن الشجاعه . وقال ازدشير : اذا رغب الملك عن العدل رغبت الرعية عن الطاعة

وعوتب كسرى انو شروان على ترك عقاب المذنبين فقال: هم المرضى اذا لم نداوهم بالعدل فمن لهم؟ وقال افلاطون بالعدل ثبات المملكة و بالجور زوالها، وقيل لازدشير من الذي لا يخاف احداً؟ قال من عدل في حكمه وكف عن ظلمه نصره الحق واطاعه الخلق وصفت له النعمة وأقبلت عليه الدنيا فهنئ بالعيش واستغنى عن الجيش وملك القلوب وامن الحروب. قال بعض العلماء: ان ايدى الرعيه تبع لالسنتها، فمتى قدرت ان تقول قدرت ان تصول فلن يملك الملك ألسنتها حتى يملك جسومها ولن يملك جسومها حتى يملك قلوبها فتحبه ولن تحبه حتى يعدل عليها عدلا يتساوى فيه الخاصة والعامة. قال كسري انوشروان لبزرجمهر: ابن لي قبة وا كتب عليها كلمات أنتفع بها في بقاء الدولة ودوام المملكة، فبناها وكتب في طرازها: العالم بستان وسياجه الدولة، والدولة ولاية تحرسها الشريعة، والشريعة سنة يستنسنها الملك، والملك راع يعضده الجيش، والجيش اعوان يكفيهم المال، والمال رزق تجمعه الرعيه، والرعية عبيد يستعبدهم العدل، والعدل مألوف به قوام العالم وقال الوليد بن هشام: يفسد الملك بفساد الملك ويصلح بصلاحه. وقال سفيان الثوري للمنصور: اني لاعرف رجلا ان اصلح صلحت الامه، قال: ومن هو؟ قال انت. واعلم ان العدل لا يتحقق من الملك الا بلزوم عشر خصال. أحدها اقامة منار الدين بحفظ شعائره والحث على العمل به من غير اهمال له ولا تفريط بحقوقه الثاني حراسة البيضة الاسلامية والذب عن الرعية من عدو في الدين او باغ في النفس والمال. الثالث عمارة البلدان باعتماد الصلاح وتهذيب السبل والمسالك. الرابع النظر في تعدي الولاة وأرباب المناصب والاعوان على الرعية لان تعديهم منسوب اليه قال الشاعر في المعنى

ومن يربط الكلب العقور ببابه ... فعقر جميع الناس من رابط الكلب

كذلك من ولى ابنـه وهو ظالم   فظلم جميع الناس من قبل الاب

الخامس ـ النظر في أموال الجند وغيرهم من أهل الرزق لئلا يبخسهم العمال ارزاقهم أو يؤخروا العطاء عنهم فيجب الانتصار لهم ـ السادس. الجلوس لكشف المظالم والنظر بين المتشاجرين من الرعية والفصل بينهم بالنصفة على وجه الشرع ـ السابع. تقدير ما يخرج من بيت المال على طبقات اربابه من غير اسراف ولا اقتار ـ الثامن. اقامة الحدود على أهل الجرائم بالشرع المطهر على قدر الجريمة ـ التاسع. اختيار خلفائه في الامور وولاته وقضاته وعماله بأن يكونوا من أهل الكفاية والامانة والحذق والدراية فيما هم بصدده ـ العاشر. تنفيذ ما وافق من أحكام القضاة وأهل الحسبة وما عجزوا عن تنفيذه لقوة يد المحكوم عليه وتعززه، فينفذ الملك ما حكموا به عليه بالشرع. فاذا فعل الملك هذه العشر خصال كان مؤدياً لحق الله تعالى في الرعية بالعدل الذي أمر الله تعالى وكان مستوجباً لطاعتهم ومستحقاً لمناصحتهم وان ترك شيئاً من ذلك كان للعدل ناكبا وفي الجور راغباً، وفي المعنى شعر

اختم وطينك رطب ان قدرت فكم   قد أمكن الختم أقواماً فما ختموا

زلوا فما عدلوا أيام دولتهم   حتى اذا عزلوا زلوا فما رحموا

الوصف الثاني العقل. أعلم ان العقل وصف شريف وخلق عظيم لا يبطل حقاً ولا يحق باطلا، وهو عبارة عما يستفاد من التجارب بمجاري الاحوال. وقيل هو العلم بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات، ومن نتائجه الفكرة السليمة والنظر الثاقب في حقائق الامور ومصالح التدبير. وسئل بعض الحكماء عن العقل فقال: الاصابة بالنظر ومعرفة مالم يكن بما كان. وقال بعض الحكماء: خير مواهب الملك العقل وشر مصائبه الجهل. وكان يقول الجاهل يعتمد على اجله والعاقل يعتمد على عمله، وقيل نظر العاقل بقلبه وخاطره ونظر الجاهل بعينه وناظره،

وقال ابن المعتز . بأيدي العقول تمسك اعنة النفوس عن اتباع الهوى، وقال بعض الحكماء: العاقل من أتعب نفسه والناس منه في راحة والاحمق من نفسه في راحة والناس منه في تعب، وقال بعضهم في المعنى

وافضل قسم الله للمرء عقله ... وليس من الاشياء شيء يقاربه
اذا كمل الرحمن للمرء عقله ... فقد كملت اخلاقه ومناقبه

وقال بعض الحكماء :العقل قائد والعلم سائق والنفس حرون فاذا كان قائد بلا سائق حرنت النفس واذا كان سائق بلا قائد عدلت يمينا وشمالا فاذا اجتمع القائد والسائق سارت طوعا أو كرهاً ، وقال بعضهم شعرا

تأمل بعينك هذا الانام ... وكن مثل من صانه عقله
فخيلة كل فتى فضله ... وقيمة كل امرء بذله
ولا تتكل في ارتفاع العلا ... على نسب ثابت أصله
فهل من فتى زانه عقله ... بشيء يخالفه فعله

وقال بعضهم: يعرف العاقل بحسن سمته وطول صمته وصحة تصرفه ،وقال بعض الحكماء: ليس للمرء ان يتحجج بحالة جليلة نالها بغير عقل، فان الجهل ينزله منها ويزله عنها ويحطه الى رتبته ويرده الي قيمته بعد ان تظهر عيوبه وتكثر ذنوبه ويصير مادحه هاجياً ووليه معادياً .وكان يقال الناس ثلاثة عاقل وأحمق وفاجر،فاما العاقل فان الدين شريعته والحلم طبيعته والرأي الحسن سجيته،ان كلم أجاب وان نطق أصاب وان سمع العلم وعى وان حدث الفقه روى،واما الاحمق فان تكلم عجل وان حدث وهل وان استنزل عن رأيه نزل، وأما الفاجر فان ائتمنته خانك وان حدثته شانك وان استكتمته أمراً لايكتمه وان علم علماً لم يعمل به،وكان يقال لاعطية أعظم من عقل ولاداء أقوى من جهل. وقال المبارك

الطبري : ليس العاقل الذي يحتال الامر الذي غشيه بل العاقل الذي يحذر الشدائد قبل الوقوع فيها حتى لايقع. وقال فيروز بن حصين: اذا أراد الله ان يزيل عن عبده نعمة كان أول ما يغير منه عقله ، شعر

يعد رفيع القوم من كان عاقلا ... وان لم يكن في قومه بحسيب
اذا حل أرضاً عاش فيها بعقله ... وما عاقل في بلدة بغريب

الوصف الثالث الشجاعة ـ اعلم ان الشجاعة من أحمد الاوصاف التي يلزم الملك ان يتصف بها ضرورة ، وان لم تكن له طبعاً تطبع بها لتحسم بهذا مواد الاطماع المتعلقة بقلوب نظرائه ويحصل منها حماية المملكة والذب عن الرعية وحقيقة الشجاعة ثبات الجأش واظهار الرعب على الاعداء واذهاب الرعب عن الاوداء وزوال هيبة الخصم واستصغاره عند لقائه ، ولا بد ان يسبق ذلك رأي ثابت ونظر صائب وحيلة في التدبير وخداع في الممارسه ، فقد قال صلى الله عليه وسلم الحرب خدعة ، وفي المعنى شعر للمتنبي

الرأي قبل شجاعة الشجعان ... هي أول وهو المحل الثاني
فاذا هما اجتمعا لنفس مرة ... بلغت من العلياء كل مكان
ولربما قتل الفتى أقرانه ... بالرأي قبل تطاعن الفرسان

واعلم ان ثمرة الشجاعة من الجند الكرّ والفر ، وثمرتها من الملوك الثبات حتى يكون قطباً يدورون عليه ومعقلا يلجأون اليه ، هذا اذا كان بحضرته من يذب عنه ، والاحسن منه حينئذ ان يذب عن نفسه اما بالاقدام واما بالانهزام . ولقد حكي ان فيلا اغتلم فدخل قصر كسرى أنوشروان ، والفيل اذا اغتلم أنكر ساسته ولا يمر بشيء الا حطمه ، وان ذلك الفيل قصد الايوان الذي فيه كسرى وعنده جماعة من خاصته ، فلما نظروا الى الفيل مقبلاً اليهم خافوا غائلته وفروا من حول كسرى

وثبت كسرى على سريره ولم يتغير عن سريرته ولا عن هيئته، وثبت عنده واحد من الرجال بيده طبر، فقام ذلك الرجل أما كسرى فقصده الفيل فثبت فلما غشيه ضربه الرجل بالطبر على خرطومه فقدّه فولى الفيل راجعاً، وكسرى في هذا كله لم يزحزح عن سريره ولا تغير لونه ولا فارقته الهيبة، وهذه غاية الشجاعة المطلوبة من الملوك وكذلك حكي ان موسى الهادي كان يوماً في بستان على حمار له وليس معه سلاح وبحضرته جماعة من أهل بيته وبطانته، فدخل عليه حاجبه وأخبره عن رجل من الخوارج كان ذا بأس شديد ونكاية في الناس وانه قد ظفر به بعض القواد وهو معه على الباب، فأمر الهادي بادخاله عليه فادخل بين رجلين قد قبضا عليه فلما نظر الخارجي الى الهادي جذب يديه من الرجلين واخترط سيف أحدهما وقصد الهادي، ففر عنه كل من كان بحضرته من أهله وبطانته، وبقي الهادي وحده على حماره بمكانه ذلك حتى دنا الخارجي منه ورفع يده بالسيف ليعلوه فقال، ياغلام اضرب، فالتفت الخارجي ينظر من خلفه فوثب الهادي من سرج حماره فاذا هو على الخارجي فقبض عليه وانتزع السيف من يده فذبحه ثم عاد الى حماره من فوره وتراجع اليه خاصته يتسللون وقد ملئوا منه رعباً وحياء فما خاطبهم بشيء من ذلك ولم يكن بعد ذلك يفارق السلاح ولم يركب الا جوادا من الخيل، وهذا أعجب ما يكون من الشجاعة وثبات الملوك

الوصف الرابع السخاء. اعلم ان السخاء عماد البر الذي هو سبب الالفة لما يوصل الى القلوب من الراحة والالطاف، وكذلك ندب الشرع اليه وحث الخلق عليه لما فيه من عموم المصلحة في الدنيا والاخرة، لان في السخاء رضى الله سبحانه وتعالى ورضى الناس أجمعين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم السخي قريب من الله قريب من الناس بعيد من النار، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم تجافوا عن ذنب

الكريم فان الله أخذ بيده كلما عثر ، وقالت عائشة رضي الله عنها الجنة دار الاسخياء والنار دار البخلاء ، وقيل أوحى الله الى موسى عليه السلام ان لا تقتل السامري فانه كريم ، وحدث أبو القاسم فقال : حضرت الحكم بن المطلب لما مات بمدينه منبج وقد أخذ في النزع وشخص بصره ، فقال أبو معيوف الحمصي : اللهم ارفق به فانه كان جوادا شجاعا صوا ما قواما ، قال فلما أفاق من غشيته قال : من المتكلم فقال أبو معيوف : ان ملك الموت يسلم عليك ويقول لك ان الله تعالى امرني ان أرفق بكل كريم ، ثم اضطجع فكأنه كان فتيلة طفئت رحمه الله ، وكان يقال سؤدد بلا جود كملك بلا جنود ، وقيل من جاد ساد ، ومن ضعف ازداد ، وكان يقال جود الرجل يحببه الى اضداده وبخله يبغضه الى اولاده ، واعلم ان السخاء على نوعين النوع الاول هو ان يبتدئ به الانسان من غير سؤال وهذا طبع السخاء وأشرف العطاء ، لان علي بن أبي طالب رضي الله عنه سئل عن السخاء فقال ما كان منه ابتداء ، فأما ما كان منه عن مسألة فحياء وتكرم ، وقال بعض الحكماء أجل النوال ما كان قبل السؤال ، وقال بعض الشعراء

وفتى خلا من ماله ومن المروءة غير خال
أعطاك قبل سؤاله وكفاك مكروه السؤال

وهذا النوع الاول من السخاء ، والسخاء قد يكون لاسباب ثلاثة ، أحدها أن يجد خلة يقدر على سدها او فاقة يتمكن من ازالتها فلا يدعه الكرم وسماحة النفس أن يهمل ذلك بل يكون متكفلا بنجازها رغبة في الاجر . الثاني ان يرى في ماله فضلة عن حاجته فيرى انتهاز الفرصة فيضعها عند ما يكون له ذخرا . الثالث أن يفعل ذلك سجية قد فطر عليها فلا يميز بين مستحق ومحروم ولا يفرق بين محمود ومذموم ، وهذا هو السخاء طبعا غير ان هذا لا يصلح بالملك لانه خارج الى السرف

والتبذير، وبيت المال قد يقل عن الحقوق ويقصر عن الواجبات، فاذا [illegible] الى غير مستحق فقد منع مستحقاً، وحال الملوك لا يقتضي ذلك. النوع الثاني من السخاء ما كان عن طلب وسؤال، وعلامة السخي عند ذلك أن يلقى السائل بالترحيب وطلاقة الوجه وأن يكتفي بالتلويح ولا يحوج السائل الى التصريح كما قال الشاعر

تلقى الكريم فتستدل ببشره ... وترى العبوس على اللئيم دليلا
واعلم بانك عن قريب صائر ... خبراً فكن خبراً تنال جزيلا

وينبغي له عند السؤال أن يعمل بالوعد قولا ثم يعمل بانجازه فعلا ليكون السائل مسرورا بعاجل الوعد ثم يؤجل الانجاز، كما حكي ان الفضل ابن السهل سأله رجل فقال اني أعدك اليوم وأحبوك غدا لتذوق حلاوة الامل، ولكن لا يطيل الوعد على السائل فانه لا تبقي حلاوة بمرارة الانتظار، شعر

ان العطية لا تكون هنيئة ... حتى تكون قصيرة الاعمار

وقد مضت سنة الخلفاء الراشدين وملوك المسلمين بصلة المسترزقين على وجه الشرع من غير اسراف ولا اقتار، وذلك مشهور فاعرضنا عن شروحه

الوصف الخامس ـ الرفق. اعلم ان الرفق أفضل أوصاف الملك وأحمد أخلاقه في التدبير لانه يبلغ به من أحوال الرعيه ما لا يبلغ بالخرق، فان الرعية قد تعامل بالرفق فتزول احقادها ويسهل مقادها، وقد تعامل بالخرق فتكاشف على ما أضمرت وتقدم على ما نهيت ثم ان غلبت كان غلبها عارا وان غلبت لم تحصل بغلبها افتخارا، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو ان الرفق رجل لكان حسنا ولو كان الخرق رجلا لكان قبيحا. وقد يبلغ الملك برفقه ولينه في التدبير ما لا يبلغه بخرقه ألا ترى ان الريح العاصف بقوتها وهول صوتها كيف يتداخل الشجر ولا يقتلع المستخلف منه. والماء بلينه وسلاسته يبلغ في أصل الشجر المستخلف منه من اصوله، وباللين والتدبير ينقلب العدو صديقا،

قال الله سبحانه وتعالى ـ ادفع بالتي هي أحسن الآية ـ و بالخرق ينقلب الصديق عدوا كالطعام الذي هو غذاء الانسان وقوام جسده اذا اساء المقدر له في تقديره وافرط في تناوله صار داء وانقلب اذى . حكي ان كسري انو شروان سأل حكيما من حكمائهم فقال : ما عز الملك ؟ فقال الطاعة ، قال فما سبب الطاعة ؟ قال التودد الى الخاصة والعدل في العامة ، قال فما صلاح الملك ؟ قال الرفق بالرعية وأخذ الحق منهم من غير مشقة واداؤه اليهم عند اوانه . وحكى شجاع الاحمر قال دخلت على المتوكل و بين يديه نصر بن علي الجهمصي وهو يحث المتوكل على الرفق بالرعية ويرغبه فيه والمتوكل ساكت ، فلما فرغ من كلامه التفت اليه المتوكل وقال : حدثني مؤدبي الفضل قال حدثني مؤدبي عن ابي عن جدي و رفعه الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان افضل عباد الله عند الله يوم القيامة امام عادل ثم اتي بيحيى ابن اكثم فقال وأنت حدثني حديثاً و رفعته الى رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : من يحرم الرفق يحرم الخير . ثم سكت ساعة متفكرا ، وقد انشد بعضهم في المعنى شعرا

ارفق فان الرفق من لينه   قد أخرج العذراء من خدرها
من يستعن بالرفق في امره   يستخرج الحية من وكرها

وقال بعضهم : دخلت على المتوكل فسمعته يمدح الرفق واستكتب هذه الابيات مني

فلا تقطع أخاك عند ذنب   فان الذنب يغفره الكريم
ولا تعجل على أحد بظلم   فان الظلم مرتعه وخيم
ولا تحزن عليه وكن رفيقا   فقد بالرفق يستشفى الكليم
فان الرفق فيما قيل يمن   وان الخرق فيما قيل شوم

وانه ينبغي للملك ان يستعمل الرفق واللين في جميع المواطن ويجعل الرعية ثلاث طبقات ويسوسهم بثلاث سياسات، طبقة هم الخواص من الابرار فيسوسهم بالعنف والشدة، وطبقة هم العامة فيسوسهم باللين تارة والشدة تارة اخرى وطبقة هم بين الطبقتين وخليط عادات الاثنتين فيسوسهم بالترغيب مرة و بالترهيب مرة وقال مسلم بن قتيبة: ملاك السلطان الشدة على المسيء واللين على المحسن، وسأل ملك من ملوك الفرس بزرجمهر فقال: ما احسن سير الملوك؟ فقال ان يعاملوا احرار الناس بمحض المودة و يعاملوا العامة بالرغبة والرهبة و يعاملوا السفهاء والسفلة بالمخافة كما قيل

اذا كنتم للناس في الارض قادة فسوسوا كرام الناس بالحلم والعدل
وسوسوا لئام الناس بالذل وحده صريحاً فان الذل اصلح للعدل

الوصف السادس الوفاء — لما كان الوفاء من الاوصاف العلية والشيم السنية أمر الله تعالى الخلق به ومدحهم على فعله فقال تعالى - يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعهود - وقال تعالى - يوفون بالنذر و يخافون يوماً كان شره مستطيراً - والوفاء خليق بالملك لما فيه من ايصال الراحة واستعطاف القلوب بانجاز الوعد ودوام العهد قال بعض الحكماء لملك في زمانه: أوصيك بأربع خصال ترضي بهن ربك وتصلح بهن رعيتك، لا تعدن وعداً ليس لديك وفاؤه ولا تتوعدن من لا ينفذ فيه الفعل، فان بالاولى تذهب عظمتك و بالثانية يعترض عليك، ولا يغرنك ارتقاء السهل اذا كان المنحدر وعراً، ولا تستغش ناصحاً فتنغطي عنك أمور الرعية، وقد كان يقال من أحسن الوفاء استوجب الصفاء؛ وكان يقال الوفاء من اخلاق الكرام والخلف من أخلاق اللئام، وقال أبو الحسن المدائني: كان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لا يكاد يوعد بحاجة تخوفاً من الخلف فاذا وعد أو قال نعم لم يقر له قرار حتى يفي بما وعد، وانشد رجل من بني تميم في المعنى شعراً

اذا قلت في شيء نعم فأتمه   فان نعم دين على الحر واجب
والا فقل لا واسترح وأرح بها   لئلا يقول الناس انك كاذب

وأنشد بعضهم

لزمت نعم حتى كأنك لم تكن   عرفت من الاشياء شيئاً سوى نعم
وأنكرت لا حتى كأنك لم تكن   سمعت بها في سالف الدهر والامم

وكان يقال: وعد الكريم نقد وتعجيل ووعد اللئيم مطل وتسويف، وكان يقال: العاقل لا يعد بما لا يستطيع نجازه ولا يسأل ما يخاف منعه، وأنشد بعض أهل العلم في المعنى

لا تقولن اذا ما لم ترد   ان تتم الوعد في شيء نعم
واذا قلت نعم فاصبر لها   بنجاح الوعد ان الخلف ذم
حسن قول نعم من بعد لا   وقبيح قول لا بعد نعم

الوصف السابع الصدق ـ اعلم ان الصدق من اسمى السمات ومن أشرف الصفات وأسلم المناهج يدعو اليه الشرع، فقد ورد باتباع الصدق ولو كانت الهلكة فيه، وحظر الكذب ولو جر نفعاً أو دفع ضررا علما من الشارع بما ينقلب اليه عاقبتهما، والعقل يدعو الى فعل ما كان مستحسناً ويمتنع من اتيان ما كان مستقبحاً، والكذب مستقبح عقلا لاسيما اذا كان لم يجلب نفعاً ولا يدفع ضررا وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تحروا الصدق وان رأيتم الهلكة فيه فان النجاة فيه وتجنبوا الكذب وان رأيتم النجاة فيه فان الهلكة فيه: قال بعض الحكماء: دع الكذب حتى ترى انه ينفعك فانه يضرك وات الصدق حتى ترى انه يضرك فانه ينفعك، وكانت العرب تقول لسان صدق مع العسرة خير من سوء الذكر مع الميسرة، وانشد بعضهم

عود لسانك صدق القول تحظ به ان اللسان لما عودت معتاد
موكل بتقاضي ماسننت له . فاختر لنفسك وانظر كيف تزداد

وقال المهلب : مايكون السيف الصارم بيد الملك الشجاع باعزّ له من الصدق وكان يقال: للملك ان يكون صدوقاً ليثق الاعوان بوعده وان يكون شكورا فيستوجب الزيادة، قال الاحنف بن قيس : كل الناس حقيق بالصدق واحقهم به الملك لان الذي يدعوه للكذب مهانة النفس والملك لايكون مهاناً: وقال بعض أهل الادب: كن صادقاً في شيء تقوله ولاتك كذاباً فتدعى منافقاً ، وقالا بعض الحكماء : اول سعادة الملك صدقه واول هلاكه جوره

الوصف الثامن – الرأفة – اعلم ان الرأفة جبلة كريمة تقتضيها حال الملوك لانها تبعثهم على حراسة الامة، وكمال الشفقة والتحنن على الرعية وضعفائها واصطناع المعروف اليهم وكف الاذية عنهم ،وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اطلبوا المعروف عند الرحماء من أمتي وعيشوا في أكنافهم ، وقال صلى الله عليه وسلم: ان الله لايرحم من عباده الا الرحماء ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء .. وروى مالك ان عمر ابن الخطاب رضي الله عنه دعا رجلا يستعمله على بعض مدائن الشام فجيء بولد صغير لعمر رضي الله عنه فأخذه عمر الى صدره ثم قبله : فقال ذلك الرجل يا أمير المؤمنين أتقبله ؟قال نعم، قال والله ان لي أولاداً ما قبلت واحدا منهم قط. فقال له عمر أنت لاترحم ولدك ولا تحنن عليه فأنت للناس أقل رحمة وتحنيناً ثم صرفه ولم يستعمله، ثم قال لايصلح وال من لارحمة عنده لرعيته :وروى مالك ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر بطريق مكة فابصر راعياً يرعى غنمه في مكان جدب فناداه وقال: انظر مكاناً خصباً فالحق به ، ثم قال على أثر ذلك : كل راع مسؤل عن رعيته .وروى أسلم مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال

طاف عمر ليلة في المدينة وأنا معه فاذا هو بامرأة من جوف دارها وحولها صبية يبكون وهي توقد تحت قدر لها فأتاها من الباب وقال يا أمة الله مما بكى هذان الصبيان ؟ فقالت من الجوع ، قال فما في هذه القدر قالت اني جعلت فيها ماء أوهمهم ان فيها طعاماً وأعللهم حتى يناموا ، قال فجلس عمر رضي الله عنه وبكى بكاء شديداً ثم قال تمهلي ، وقام وجاء الى بيت الصدقة فأخذ غرارة وجعل فيها دقيقاً وشحماً وسمناً وتمراً وثياباً ودراهم حتى ملأ الغرارة ، ثم قال يا أسلم احمل هذا على ظهري ، قال فقلت يا أمير المؤمنين أنا أحمله عنك ، فقال لا أم لك يا أسلم احمل عليّ فأنا المطالب عنهم يوم القيامة ، قال فحمل الغرارة على صلبه حتى أتى بها منزل المرأة فأخذ القدر وجعل فيها شيئاً من دقيق وشحم وتمر وجعل يحركه وينفخ تحت القدر ، قال أسلم وكان له لحية عظيمة فلقد رأيت الدخان يخرج من خلالها حتى طبخ لهم ، ثم جعل يفرق لهم بيده ويطعمهم حتى شبعوا ، قال ثم خرج وتربص بحذائهم على الباب كأنه سبع نخفت ان أكلمه ، فلم يزل كذلك حتى لعب الصبيان وضحكوا ، ثم قال يا أسلم هل تدري لما تربصت بحذائهم ؟ قلت لا يا أمير المؤمنين فقال كنت رأيتهم يبكون فكرهت ان أذهب حتى أراهم يضحكون ، فلما ضحكوا طابت نفسي . وحكي ان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لما ولي الخلافة أحضر عنده محمد بن كعب القرظي وقال دلني على النجاة من عذاب الله تعالى ؟ فقال فليكن كبير المسلمين لك أباً وأوسطهم عندك أخاً وأصغرهم ولداً فوقر أباك وارحم أخاك وتحنن على ولدك . وقال نصر بن سيار الكناني كان عظماء الترك يقولون ينبغي للملك العظيم ان يكون فيه عشر خصال ، أربع من خصال الطير وست من خصال الوحش ، وهي سماحة الديك وتحنن الدجاجة وحراسة الكركي

وحذر الغراب وحملة الخنزير وقلب الاسد وغارة الذئب و روغان الثعلب وصبر الكلب وشقاء الضب، وقد نظم هذا بعض الشعراء

أبى الطير لا يتركن أثار خيلنا لأكل لحوم من أعاد سواغب
وما زال من حب لنا غير عادة لهن علينا في بقاء الكتائب
أرى الملك المقدام من تم أمره بعشر خصال هن خير المناقب
سماحة ديك ثم رأف دجاجة وحرسة كركي وحذرة زاغب
وحملة خنزير وقب غدنفر (١) وغارة ذئب ثم روغ الثعالب
وكالكلب صبرا حين يقرع بالعصا وشقوة ضب في بلاد سباسب
فمن كان هذا وصفه فهو كامل عظيم والا فهو أخيب خائب

وقال بعض العلماء: خير الملوك من ملأ قلوب رعيته محبة كما أشعرها هيبة ولن ينال ذلك منها حتى يكون عاملاً بخمس خصال: اكرامه شريفاً و رحمته ضعيفاً واغاثته لهيفاً وكف عدوان عاديها وتأمين السبيل لرائحها وغاديها، ومتى أعدم الرعية شيئاً من ذلك فقد أحقدها بقدرها قدر ما أفقدها

الوصف التاسع الصبر - اعلم ان الصبر يتنوع أنواعاً كثيرة ألقها بكمالها في كتابي هذا صبر الملوك وهو عبارة عن ثلاثة قوى، القوة الاولى قوة الحلم وثمرتها الصبر، القوة الثانية قوة الحفظ وثمرتها عمارة المملكة، الثالثة الشجاعة وثمرتها في الملوك الثبات لان اقدامهم في المعارك تهور وطيش والصبر سيد الاوصاف الجليلة وأميرها، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبر خليل المؤمن والحلم وزيره والعقل دليله والعمل قائده والرفق والده والبر أخوه والصبر أمير جنوده، وليس المراد تفضيل الصبر على العلم والعقل، وانما المراد أن الثبات على هذه الخصائص انما يكون بالصبر لان الصبر الثبات

(١) الاصل بالدال ولعله بالضاد كالمشهور

والحبس والاثبات والامساك، فمن اتصف بشيء من هذه الخصال ولم يصبر كان عند مزايلته كمن لم يتصف به، فالصبر ضابط للاوصاف الشريفة كما يضبط الامير جنوده، وقيل كان مكتوباً في الصحيفة الصغرى المعلقة في أعظم هياكل الفرس، كما ان الحديد يعشق المغناطيس فكذلك الظفر يعشق الصبر فاصبر تظفر، ولهذا أنشد بعضهم

اني وجدت وخير القول أحمده   للصبر عاقبة محمودة الاثر
وليس من كان في أمر يطالبه   واستعمل الصبر الا فاز بالظفر

وقال بعض حكماء العرب: ما ميز الرجل بين صبر ولا جزع الا وجدهما متفاوتين، أما الصبر فحسن الاولى محمود بالعاقبة والجذع غير معوض شيئاً ولو كانا في صورة لكان الصبر أولاهما بحسن الخلقة وكرم الطبيعة، وقال بعض الحكماء الحوادث النازلة نوعان أحدهما لا حيلة فيه، فدفعه بالصبر الدائم والاعراض عنه الثاني يمكن فيه الحيلة، فدفعه بالصبر عنه الى حين نفوذ الحيلة فيه، وانشد بعضهم شعرا

اصبر اذا دهمتك نائبة   ماخاب من يصبو الى الصبر
فالصبر أولى ما اعتصمت به   ونعم حوشا جوانب الصدر

وقال حسن البصري: جربنا وجرب المجربون فلم نر شيئاً أنفع من الصبر به تداوى الامور وهو لا يداوى بغيره، عن سليمان بن داوود عليهما السلام انه قال: انا وجدنا خير معيشتنا الصبر، وكان عيسى بن مريم عليه السلام يقول: يامعشر الحواريين انكم لا تدركون ما تؤملون الا بالصبر علي ما تكرهون: ولهذا شعر

ويوم كان للمصطلين بحره   وان لم تكن ناراً قياماً على الجمر
صبرنا له حتى تفرج انما   تفرج أيام الكريهة بالصبر

وقال آخر شعرا

الصبر أولى بوقار الفتى   من قلق يهتك ستر الوقار
من لزم الصبر على حالة   كان على أيامه بالخيار

الوصف العاشر العفو—اعلم ان وصف العفو خليق بالملك لما فيه من المزية وكمال مصلحة الرعية لان الملك متى عاقب على الزلة وقابل على الهفوة وأخذ بالجرم الصغير ولم يتجاوز عن الكبير قبحت سيرته ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه أفضل القصد عند الحدة وأفضل العفو عند القدرة ، وما أقبح مجازاة القادر على سوء صنيع المقدور عليه، وكان معاوية رضي الله عنه يقول : ان أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة وان انقص الناس عقلا من ظلم من هو دونه وقيل ان عظيما من عظماء قريش في سالف الدهر كان يطلب رجلا، فلما ظفر به قال له لولا ان القدرة تذهب الحفيظة لانتقمت منك، ثم أطلقه فحسنت سيرته وغضب سليمان بن عبد الملك على خالد بن عبد الله القشري فلما دخل عليه قال يا أمير المؤمنين ان القدرة تذهب الحفيظة وأنا مستحق الى العقوبة فان تعف فأهل ذلك أنت وان تعاقب فأهل ذلك أنا ، فعفى عنه والله اعلم

وحكي ان المأمون لما ظفر بعمه ابراهيم بن المهدي احضر عنده جماعة من خواصه ثم قال : عليّ به فأدخل عليه وهو يحجل في قيوده فقال السلام عليك ياامير المؤمنين، فقال لاسلام الله عليك ولا مرحباً بك، فقال ابراهيم على رسلك ياامير المؤمنين ، ثم انشد يقول

انا المذنب الخطاء والعفو واسع   ولو لم يكن ذنب لما عرف العفو
سكرت فابدت مني الكاس بعض ما   كرهت وماان يستوي السكر والصحو
فان تعف عني كان حظي وافرا   والا تداركني فقد قصر الخطو

ثم قال ياأمير المؤمنين انك وليّ ثاري وان القدرة تذهب الحفيظة واني قد اصبحت فوق كل ذي ذنب كما اصبح كل ذي عفو دونك فان تعاقب فبحقك وان تعف فبفضلك، قال فاطرق المأمون ثم رفع رأسه وقال: ان هذين اشارا عليّ بقتلك - يعني العباس والمعتصم - فقال انهما أشارا على مايشير به مثلهما على مثلك اذ كان مني الذي كان، فقال ياعماه ان من الكلام كلاماً كالدر في لبات الغواني وان هذا الكلام منه، ياغلام حل القيود عن عمي، وكان المأمون يقول ليس على العفو بونة (مزية) واني وددت ان أهل الجرائم يعلمون حلمي وعفوي فيذهب عنهم الخوف وكان يقال: أقبح المجازاة المكافأة بالاساءة، وقيل ان عبد الملك بن مروان اشتد غضبه على رجل فلما صار في يده قال له: يافاجر لامثلن بك أشر الامثال، فقال له رجاء بن حيوة: ان الله تعالى قد صنع ما أحببت ياأمير المؤمنين فاصنع ما يحبه الله من العفو عنه، قال فعفى عنه واطلقه، وكان المأمون يقول: لو علم الناس رغبتي في العفو ماتقربوا اليّ الا بالذنوب، وأنشد في المعنى

أقبل معاذير من يأتيك معتذرا واغفر له ذنبه ان برّ أو فجرا
فقد اطاعك من ارضاك ظاهره وقد اجلك من يعصاك مستترا

ويحكى انه جرى بين شهرام المروزي وبين أبي سالم الخراساني كلام شديد ومنازعة فمازال أبو مسلم يقاوله الى ان قال له شهرام - يالقيط - فلما قال ذلك سكت ثم ان شهرام ندم فاقبل على أبي مسلم معتذرا وخاضعاً، فلما رأى أبو مسلم ذلك قال لسان سبق ووهم أخطأ وانما الغضب من الشيطان والعذر يسعك والعفو أجمل وقد عفونا عنك، فقال شهرام أيها الامير ان عفو مثلك لايكون الا غروراً فان عظم ذنبي لايدع قلبي يسكن، فقال أبو مسلم ياعجباً كنت تسيء وأنا أحسن فاذا أحسنت أسيء، وأنشد بعضهم في المعنى شعرا

تعفو الملوك عن العظيم   من الذنوب لفضلها
ولقد تعاقب في اليسير   وليس ذاك لجهلها
الا ليعرف فضلها   وتخاف شدة نكلها

ويحكى ان المنصور بعث الى جعفر بن محمد فلما اتاه قال اني أريد أن أستشيرك في أمر؟ قد رأيت اطباق اهل المدينة على حربي وقد نهيتهم مرة بعد اخرى فلم ينتهوا وقد رأيت ان أبعث اليهم من يقطع نخلها ويغوّر عيونها فما ترى انت؟ فسكت جعفر، فقال له مالك لا تتكلم قال اتكلم انا؟ قال نعم، قال يا أمير المؤمنين ان سليمان عليه السلام اعطي فشكر وان أيوب ابتلي فصبر وان يوسف عليه السلام قدر فغفر وان محمداً صلى الله عليه وسلم أوذي فاحتمل وقد جعلك من نسل الذين يغفرون ويعفون ويصفحون، قال فانطفأ غضبه وامسك عنهم وانشد بعضهم في المعنى شعراً

اشكو اليك هموماً ليس يكشفها   الا رضاك فقوّم بالرضى أودي
ان تعف عني فاهل العفو انت وان   عاقبتني فكما تجنى عليّ يدي

وقال آخر

لقد ناديت عفوك من قريب   كما سالمت شخصك من بعيد
فان عاقبتني فبسوء فعلي   وما ظلمت عقوبة مستفيد
وان تمنن فاحسان جديد   منت به على شكر جديد

الوصف الحادي عشر الشكر — اعلم ان الشكر ينقسم على ثلاثة أقسام عقد بالجنان وثناء باللسان ومكافأة بالاحسان، فاما العقد بالجنان هو ان يضمر اعظام المنعم واعظامه واجلاله والخشية له والاقبال عليه والعجز عن القيام بحقيقة شكره واستكثار النعمة منه وان قلت، واستقلالها في غيره وان جلت. واما الثناء باللسان

فهو اظهار الحمد للمنعم والثناء عليه والتحدث بما خوله من تواتر النعم وبلوغ المقاصد وحصول الاغراض وغير ذلك مما خصه المنعم لخلقه، وفضله به على كثير الناس. واما المكافأة بالافعال فهي الاقبال على طاعته والوقوف عند حدوده ومنهياته وان يواسي الضعفاء من نعمته ويعمهم بعدله ويخصهم بفضله سيما لمن ناصح في دولته واخلص في خدمته وصدق في ولايته من أعوانه وخاصته ولمن سارع في مرضاته وغير ذلك مما يجلب اليه المسرة او يدفع عنه به المضرة، فانه اذا فعل ذلك بنية وقول وعمل سمي شاكراً على الحقيقة، وكان لمزيد النعمة مستحقاً ولتابع الاحسان مستوجباً، لقوله عز وجل - لئن شكرتم لازيدنكم - وقد قال بعض الحكماء لا يكون الملك شاكراً للنعمة حتى يجتمع فيه اربعة أشياء، المواساة فيها والاستعانة بها على طاعة موليها والارشاد بها وتيقن العجز عن القيام بحقيقة شكرها، وكان يقال: لا زوال للنعمة مع الشكر ولا بقاء لها مع الكفر، وقيل الشكر قيد للنعمة وقيل الشكر مثمر النعم وعصمة من النقم، وقال بعض الحكماء: من لم يشكر على الانعام فاعدده من الانعام. وقال بعض ملوك الهند خير: الملوك الشكور على حسن الاعمال والصبور على مايحمل من الاثقال، وكان يقال من كفر النعمة استوجب حرمان المزيد، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه

من حاول النعمة بالشكر لا … يخش على النعمة ما اغتالها
لو شكروا النعمة زادتهم … مقالة الله الذي قالها
لان شكرتم لازيدنكم … لكنما كفركم غالها
والكفر بالنعمة يدعو الى … زوالها والشكر أبقى لها

وقال بعض البلغاء: الشكر وان قلّ يزيد كل نوال وان جل، وقيل

فلو انه استغنى عن الشكر ماجد … لرفعة حال أو علو مكان

لمـا أمر الرحمن بالشكر خلقه فقال اشكروني أيها الثقلان

الوصف الثاني عشر ـ الاناة ، اعلم ان الاناة من أوصاف الملك وأعظم أخلاقه وأكملها وعلامة توفيقه لانه يتعلق بها صواب الرأي والتدبير واتضاح الامور في السياسة ولا يقترن بها ذلل ولا يعقبها ندامة ولا فشل ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم التردد من الرحمن والعجلة من الشيطان ، وقال بعض الحكماء على الملك ان يعمل بثلاث خصال تأخير عقوبة من أساء العمل وتعجيل مكافأة المحسن والعمل بالاناة فيما حدث من الامور ، فان له في تأخير العقوبة امكان العفو وفي تعجيل المكافأة بالاحسان المسارعة الى الطاعة من الرعية وفي الاناة اتضاح الرأي وانفساح الجواب . وسأل ملك من الملوك حكيما فقال : أي أخلاق الملك احمد ؟ فقال الاناة فقال أيها أجلب لمودة الرعية ؟ قال الكرم قال فأي الملوك اخرق قال امرعهم عقوبة للرعية قال فأي الخلال اجمع للمحامد والمناقب قال العدل ، ويحكى ان عليا ابن أبي طالب رضي الله عنه سأل كبيرا من كبراء فارس فقال ، أي ملوككم كان عندكم احمد سيرة ؟ قال ازدشير له فضيلة السبق في المملكة ، غير أن احمدهم سيرة انوشروان ، قال فأي حالة كانت أغلب عليه ؟ قال الحلم والاناة

الوصف الثالث عشر ـ الحلم ، اعلم ان الحلم ضبط النفس عند هيجان الغضب وهو خليق بالملك لمـا فيه من الراحة واستلزام الحمد وحسن العاقبة ورضى الخالق قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان الله يحب الحليم ويبغض الفاحش ، وقال علي ابن أبي طالب رضي الله عنه : من حلم زاد ومن فهم ازداد ، وقال بعض العلماء كل ملك لا يجتمع فيه ثلاث قوات فملكه مسلوب ، القوة الاولى قوة الحلم وثمرتها العفو الثانية قوة حفظ الرعية وثمرتها عمارة المملكة ، القوة الثالثة قوة الشجاعة وثمرتها في

الملوك الثبات وفي الجند الاقدام. وكان يقال أأكد أسباب الحلم رحمة الجهال وقال معاوية : اني لأرى أكبر ذنب أن يكون ذنب أوسع من حلمي، وكان يقال: ليس الحليم من اذا ظلم حلم حتى اذا قدر انتقم، ولكن الحليم من اذا ظلم حلم حتى اذا قدر عفى: وقد حفظ من وصية انو شروان لولده: يابني من أخلاق الملوك الحلم وعزة النفس وانك ستبلى بمداراة قوة وان سفه السفيه ربما بلغك فانك ان كافأته بالسفه فكانك رضيت بما عنى فاجتنب ان تحتذي عليك مثاله وان كان سفه السفيه عندك فحقق ذمك اياه بترك معارضته، ويحكى انه قيل للاسكندران فلاناً وفلاناً يسبانك فلو عاقبتهما لانزجرا ، فقال هما بعد العقوبة اعذر في سبي وقال الاحنف بن قيس ماجهل علي أحد الا اخذت في أمره بأحد ثلاث خصال ان كان اعلا مني عرفت له قدره وان كان دوني رفعت قدري عنه وان كان نظيري تفضلت عليه، فأخذ محمود الوراق هذه المعنى ونظمها شعرا

سالزم نفسي الصفح عن كل مذنب ... وان عظمت منه علي الجرائم
وما الناس الا واحد من ثلاثة ... شريف ومشروف ومثل مقاوم
فاما الذي فوقي فاعرف قدره ... واتبع فيه الحق والحق لازم
واما الذي دوني فان قال صنت عن ... اجابته عرضي وان لام لائم
واما الذي مثلي فان زل اوهفا ... تفضلت ان الحلم بالفضل حاكم

وانشدني بعض أهل العلم

وجهل رددناه بفضل حلومنا ... ولو اننا شئنا رددناه بالجهل
رجحنا وقد خفت حلوم كثيرة ... وعدنا على أهل السفاهة بالفضل

وقال عبيدة بن عاصرة

وانا وان كنا اسنة قومنا ... وكان لنا فيهم مقام مقدم

لنصفح عن أشياء منهم تسوءنا ونضرب عن ذي الجهل منهم ونحلم
ونكلؤهم بالغيب منا حفيظة وأكبادنا وجدا عليه تضرم
ولا نسأم النعماء منا اليهم وان كثرت حتى يملوا ويسأموا
وليس بمحمود من الناس من جزى بسيئة يأتي المسيء الملوم
ساحمل عن قومي جميع استياءهم وأدفع عنهم كل خيم واغرم

واعلم ان كمال العقل وشرف النفس وعلو الهمة يبعث على الحلم عند هيجان الغضب لاسباب اربعة، أحدها الترفع عن السفيه ممن له خدمة سالفه وحرمة لازمة فيراعي منه ذلك فيحلم عنه لاجله، الثاني الرحمة له والرأفة به لضعفه عند القدرة عليه، الثالث ان يتألفه بالحلم ويتفضل عليه به، الرابع الاستحياء من الله تعالى ومن الحاضرين ان يجيب السفيه بسفه مثله، وينبغي للملك ان يعرض على نفسه هذه الاسباب عند هيجان الغضب ليجلب اليه الحلم واحد منها. واعلم ان الحلم ليس بمحمود في كل المواطن لانه قد يطرأ على الملك من الامور مايكون الحلم معها مفسدة والتراخي عنها مضرة، لان الرعية على قسمين قسم لا يخشى فسادهم ولا يضر ماصدر عنهم، فاطراح الملك لهم والترفع عن مجازاتهم أليق والاستهانة بهم اصوب، وقسم لا يمكن الملك اهمال امرهم فردعهم بالافعال الزاجرة اولى بالملك من الحلم عنهم حتى لا يزدادوا شرا وتمردا وقد سأل يزيد بن معاوية اباه فقال ياأمير المؤمنين هل ذممت عاقبة حلم قط اوحمدت عاقبة اقدام قط؟ فقال ماحلمت على لئيم قط وان كان وليا الا اعقبني ذما ولا قدمت على عقوبة كريم قط وان كان عدوا الا اعقبني اسفا، وقال بعض الحكماء ان الحلم يفسد من اللئيم بقدر اصلاحه من الكريم، وقال بعض أهل العلم: ليس الحلم بمحمود في كل المواطن كما ان الجهل ليس بمذموم في جميع الاحوال ولهذا شعر

لئن كان حلم المرء عون عدوّه عليه فان الجهل عن ذاك أروح
وفي الحلم ضعف والعقوبة قوة اذا كنت تخشى كيد من عنه تصفح

وقال ابراهيم بن المهدي

اذا كنت بين الحلم والجهل ماثلا وخيرت ايما شئت فالحلم أفضل
ولكن اذا أنصفت من ليس منصفا ولم يرض منك الحلم فالجهل أفضل

وينبغي للملك ان يتلطف في تدبير من هذه صفته على وجه يحصل به الردع والزجر من غير مبالغة في النكاية على ماتقتضيه المصلحة في تدبير السياسة

الوصف الرابع عشر — اعلم ان العفاف هو ضبط المملكة والنفس عن الرذائل وكف الجوارح عن الأذى وذلك غاية السؤدد وكمال المروة وختام مكارم الاخلاق ،قالت عائشة رضي الله عنها: كانت الجاهلية لايسودون الا رجلا يجتمع فيه ست خصال ثم زادت في الاسلام خصلة فصارت سبعا، السماحة والنجدة والصبر والحلم والبيان والتواضع وتمامهن في الاسلام العفاف .وكان يقال من عف في ماله وعدل في سلطانه حشر مع الابرار .وقد قدمنا في صدر الكتاب أن من لم يقدر على ضبط نفسه من الرذائل لم يقدر على ضبط حواسه وهي خمسة ومن لم يقدر على ضبط حواسه لم يقدر على ضبط خاصته ومن لم يقدر على ضبط خاصته وهم نصب عينيه لم يقدر على ضبط رعيته وهم في اقاصي بلاده ، فاذا عف نفسه وجوارحه فقد انتظم أمر مملكته في دنياه وينقلب الى الملك الدائم في عقباه، فاما اعفاف الجوارح فهو أن يعف بصره عن النظر الى المحارم وان يترك ماحجب عنه ونهي لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال النظر سهم مسموم من سهام ابليس فمن تركه من خوف الله أتاه الله ايمانا يجد حلاوته في قلبه، وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: من غض بصره عن نظر الحرام زوجه الله من الحور العين حيث أحب

ومن اطلع فوق بيت من بيوت الناس حشر يوم القيامة أعمى — ثم يعف سمعه من كلام الناس القبيح والغيبة والنميمة وسماع المحرم من الملاهي وينزه مجلسه عن جميع ذلك، فقد قال عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما: نهينا عن الغيبة والاستماع اليها والنميمة والاستماع لها: وقال صلى الله عليه وسلم: من استمع الى فتنة صب في أذنيه الانك يوم القيامة — ثم يعف لسانه عن قول الكذب والغيبة والنميمة والسخف من الكلام، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من ضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه ضمنت له على الله الجنة، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: وهل يكب الناس على مناخيرهم في النار الا حصائد ألسنتهم — ثم يعف يده ولا يتناول بها الا مايحل له من أموال الرعية ولا يبسطها الى محذور في عقوبة ولا نكاية محرمة في حد ولا تعذير فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: حرمة مال المسلم كحرمة دمه، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بئس الزاد الى المعاد العدوان على العباد — ثم يعف رجليه فلا يسعى الى مكروه فقد قال مسروق ماخطا العبد خطوة الا كتب له بها حسنة أو سيئة — ثم يعف فرجه عن مقاربة الزنا، وذلك أصل العفاف وتمام المروءة وحصانة الدين، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الحديث المتقدم، فاذا فعل جميع ذلك كان عفيفاً وكان للسيادة مستحقاً

الوصف الخامس عشر — الوقار، أعلم ان وقار الملك وسياسته وسكينته من أعظم سياسة المملكة لما يتعلق به من اظهار الهيبة وتعظيم الحرمة وقيام الأبهة وارهاب العدو وأهل الزعارة، وسنوضح ذلك ان شاء الله في الباب السابع وهذه أصول مكارم الاخلاق ومحاسنها التي تقوم بها السياسة، وتدوم بها الرئاسة وسنزيدها ايضاحاً بذكر قبائح اضدادها في الباب السادس ان شاء الله تعالى

الوصف السادس عشر — في معرفة الاوصاف الذميمة والنهي عنها ، لما ذكرنا من مكارم الاخلاق أوصافاً جميلة وأخلاقاً حميدة يزداد المتصف بها جلالا وتعظيماً ، أحببنا أن نوضح ماذكرنا من محاسنها بشرح قبائح اضدادها المذمومة الخارجة بالنفس من حد الاعتدال الى ما يعقبها من الاضداد في اشنأ حال، ونختم هذا بذكر اعراض رديئة ربما عرضت للملك فاخرجته عن قانون الاعتدال،وهي خمسة عشر وصفاً وثلاثة أعراض ، أما الاوصاف فهي الجور والجهل والبخل والسرف والخلف والكذب والغيبة والغضب والعجب والكبر والحسد والعجلة والمزاح والضحك والغدر،واما الثلاثة الاعراض فهي الهم والغم والسكر

الوصف الاول الجور ،اعلم ان الجور هو العدل عن الحق ، واستمراره يخل نظام الطاعة من الرعية ويبعثهم على ترك المناصحة وعدم النصرة ويحملهم على نصب الغوائل وتربص الدوائر وليس شيء أصدع منه في خراب الارض ولا أفسد منه لضمائر الخلق لانه ليس يقف على نهاية ولا ينتهي الى غاية،وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، ان أشد الناس عذاباً يوم القيامة من اشركه الله في سلطانه فجار في حكمه، وقال لن تهلك الرعية وان كانت ظالمة أو مسيئة اذا كانت الولاة هادية منها،وتهلك الرعية ان كانت هادية مهدية اذا كانت الولاة ظالمة مسيئه .وقال عليه السلام :قال الله لانتقمن من الظالم في عاجله وآجله ولأنتقمن ممن يرى مظلوماً فقدر على أن ينصره فلم يفعل ،قال عليه الصلاة والسلام بئس الزاد الى المعاد العدوان على العباد، وقال بعض الحكماء : الملك يبقى على الكفر ولا يبقى على الجور ،وقال حكيم آخر :الجور مسلبة النعم والبغي مجلبة النقم وقال افلاطون: بالعدل ثبات الاشياء وبالجور زوالها ،وقال أيضاً: اياكم والجور فانه اداة العطب وعلة خراب البلاد .ويحكى ان الرشيد حبس ابو العتاهية واقسم

ان لايخرجه من حبسه فبقي في السجن مدة طويلة ،فلما ضاق به الامر كتب على حائط الحبس هذه الابيات

اما والله ان الظلم شؤم   وما زال المسيء هو الظلوم
تنام ولم تنم عنك المنايا   تنبه للمنية يا نؤوم
الى ديان يوم الدين نمضي   وعند الله تجتمع الخصوم

قال فاخبر الرشيد بذلك فبكا واحضر ابا العتاهية ووهبه الف دينار وكفر عن يمينه ، وأنشدني بعضهم شعرا

عليك بالعدل ان وليت مرتبة   واحذر من الجور فيها غاية الحذر
فالملك يبقى على الكفر البهيم ولا   يبقى على الجور في بدو ولا حضر

وقال بعض الحكماء: ليس للجائر جار ولا يعمر له دار ،وقال حكيم آخر: اقرب الاشياء صرعة الظلم وأنفذ السهام دعوة المظلوم، وقال بعضهم شعرا

لاتظلمن اذا ما كنت مقتدرا   فالظلم مرتعه يدعو الى الوخم
تنام عيناك والمظلوم منتبه   يدعو عليك وعين الله لم تنم

ويحكى أن يزدجر الاثير لما كثر عسفه لرعيته واشتد جوره عليهم باغتصاب الاموال واهانتهم بالعذاب وطال ذلك عليهم اجتمع جماعة من المظلومين في بعض الهياكل ثم دعوا الى الله سبحانه وتعالى أن يريحهم منه،فمكث بعد ذلك خمسة ايام أو سبعة ايام فجاءه صاحبه وأخبره ان فرساً مستوحشاً جمع محاسن صفات الخيل قد جاء يشتد عدواً حتى وقف على باب الملك وقد تهيبه الناس فلم يجترئ أحد عليه وقد نفرت منه الخيول فلم تقرب منه،فلما سمع بذلك يزدجر خرج من قصره فرأى من الفرس منظراً عجباً فدنا يزدجر منه فخضع له الفرس فخامره الاعجاب بنفسه فأمسك بناصيته ومسح وجهه ثم أمر باسراجه

فجمع به وسبق الابصار عدواً حتى أتى البحر فاقتحمه به فكان ذلك آخر ما علم من خبره. وقد يعلم قبح الجور عقلا وشرعا فيجب اجتنابه والوزع عنه لما فيه من اختلال الرعية واضطراب الدولة وخراب البلاد وعذاب الآخرة

الوصف الثاني ـ الجهل اعلم ان الجهل من الاوصاف الذميمة والاخلاق الرديئة لا سيما بالملوك فان صاحبه لايعرى عن القبيحة ورأيه ابدا في ضلال وتدبيره في وبال يقترن به الزلل ويحيط به الفشل ، وقال بعض الحكماء: الجهل مطية من ركبها ذل ومن صحبها ضل ، وقال آخر خير المواهب العقل وشر المصائب الجهل ، وقيل : الجاهل يعتمد على امله والعاقل يعتمد على عمله: وقيل نظر الجاهل بعينه وناظره ونظر العاقل بقلبه وخاطره ، واعلم ان للجهل اوصافاً تظهر عليه خصالا ترشد اليه، فمن ذلك ماروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال :للجاهل خصال يعرف بها يظلم من خالطه ويعتدي على من دونه ويتطاول على من فوقه ويتكلم من غير تدبر ان عرضت عليه فتنة ارضته واذا رأى فضيلة اعرض، وقال بعض العلماء: ستة يعرف بها الجاهل الغضب في كل شيء والكلام من غير نفع والعطية في غير موضعها وافشاء السر والثقة بكل احد وان لايعرف صديقه من عدوه وحكى صالح بن حسان قال :كان عبد الله بن جعفر بن ابي طالب رضي الله عنه صديقاً للوليد بن يزيد بن عبد الملك وكان عبد الله يأتي اليه فتخاليا يوماً يلعبان بالشطرنج فأتاه الحاجب فقال ان بالباب رجلا سيدا من اخوالك من ثقيف قدم غازياً وقد أحب التسليم عليك قال دعه ساعة حتى نفرغ من دستنا ،قال عبد الله وما عليك ذلك ان حضر ؟ائذن له ،قال لما علمت انك مغلوب اردت ان تخبط الطابق؟ قال عبد الله فاطلب منديلا وضعه عليها حتى يدخل الرجل فيسلم عليك ثم نعود الى الدست، ففعل ذلك ثم قال ائذن له، فدخل رجل مشمر

عليه هيئة حسنة وعليه عمامة فاخرة و بين عينيه أثر السجود وقد خضب لحيته بالحناء، فقال اصلح الله الامير قد قدمت غازيا فكرهت ان اجاوزك حتى اقضي حقك قال حياك الله و بارك فيك، ثم سكت عنه ساعة فلما انس به اقبل عليه الوليد وقال ياخال هل جمعت القرآن ؟ قال قد كانت شغلتنا عنه شواغل، قال فهل حفظت منه شيئاً؟ قال قد كانت اموالنا شغلتنا عن ذلك، قال فاحاديث العرب وادابها واشعارها؟ قال لا لاني كنت في شغل عن ذلك. قال فأحاديث العجم وآدابها، قال ان ذلك لشيء ما طلبته، قال فهل عرفت من اقوال الشعراء والحكماء وسير الملوك ما تسوس به قومك؟ قال لا ان ذلك لشيء لم اكن ابحث عنه، قال فاستدار الوليد ورفع المنديل فقال عبد الله سبحان الله قال الوليد لا تستح منه فانه لم يكن معنا في البيت انسان، فلما خرج ذلك الرجل قال الوليد اما علمت ان الجهال كالانعام لا يستحى منهم

الوصف الثالث ـ البخل، اعلم ان البخل من أذم الخلق وأنكر الطرق نهى عنه الشرع وقضى بقبحه العقل، وحقيقته منع الحقوق الواجبة وتقتير النفقات المستحقة، وفي العرف والعادة هو خزن المال ومنع المستوفدين من فضوله، واعلم ان البخيل لا يزال مسلوب الهيبة مفقود الوهبة ثقيلا على النفوس بغيضاً الى القلوب ترمقه الابصار بالاحتقار و بقلة الوقار، وذلك ان البخل يدعو الى الكدح وخزن المال و يمنعه من ايصال الحقوق الى اهلها وهو يعطي الفضائل و يظهر الرذائل وفي المغنى شعر

ويظهر عيب المرء في الناس بخله ويستره عنهم جميعاً سخاؤه
تغطى باثواب السخاء فانني ارى كل عيب والسخاء غطاؤه

وقد ينتج من البخل اربعة اخلاق مذمومة كل خلق منها في نهاية القبح

وهي: الحرص والشره وسوء الظن بالله ومنع الحقوق ، اما الحرص فهو شدة الكدح في الطلب والمبالغة في جمع المال ، وهذا ربما افضى بصاحبه الى اقتحام الحرام واخذ الشبهات فكان مذموماً ، اما الشره فهو استقلال الكفاية واستكثار المال بغير حاجة وذلك مذموم ، واما كونه يسيء الظن بالله تعالى فان البخيل يعتقد ان المال يذهبه الانفاق وليس خلف من الله تعالى ولا عوض يرجع اليه فيؤدي الى عدم الثقة بالله تعالى وذلك غاية المذمة والقبح ، واما منع الحقوق فان البخيل نفسه لاتسمح بفراق المال اذ هو محبوبها ونهاية مطلوبها فلا تنقاد الى ايصال الحق ولا تذعن باتصال الخلف ، واذا كان البخيل بهذه الاوصاف فليس عنده خير موجود ولا صلاح مأمول ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : السخي قريب من الله قريب من الجنة بعيد من النار ، والبخيل بعيد من الله بعيد من الجنه بعيد من الناس قريب من النار ، واما اقوال الانبياء فمن جملتها قول بعضهم عليهم السلام : طعام الجواد دواء وطعام البخيل داء . وقالوا : بشر مال البخيل بحادث او وارث ولاهل العلم شعر

يفني البخيل بجمع المال مدته ... وللحوادث والوراث مايدع
كدودة القز ما تبنيه يهلكها ... وغيرها بالذي تبنيه ينتفع

ويقال : البخل جلبات المسكنة ، وقال حكيم آخر : لايدخل البخل مسكناً الا أعقبته الحسرة ولا يدخل الطمع مدخلا الا عقبته المذلة ولا يدخل الشره مدخلا الا اعقبته الحيرة ، وقيل : البخيل ليس له خليل ، وقيل المال كالماء فمن استكثر منه ولم يجعل له مسرباً يتسرب فيه مازاد عن القدر الكافي أغرقه ، ولاهل العلم شعر

اراك تؤمل حسن الثنا ... ولم يرزق الله ذاك البخيلا
وكيف يسود اخو فطنة ... يمن كثيرا ويعطي قليلا

الوصف الرابع السرف ، اعلم ان السرف في انفاق المال وصف خارج عن حد السخاء المحمود مجانس البخيل في الذم والقبح، لان الله سبحانه وتعالى ساوى بين حالتيهما في النهي فقال تعالى ـ ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً ـ فنهى عن بسطها سرفاً كما نهى عن قبضها بخلا فيدل ذلك على استوائهما ذماً واتفاقهما لوما ، ولان المسرف في اعطائه المبذر في سخائه لا يفرق بين محمود ومذموم ولا يميز بين مستحق ومحروم، وهذه الحالة تدل على الطبع المذموم وطيش الرأي وقصور التدبير ، وذلك لا يليق بالملوك لان بيت المال يقل عن الحقوق ويقصر عن الواجبات ، اذا اسرف في بذله فقد وضع الشيء بزيادته على قدر المستحق ، وقال بعض الحكماء . الخطأ في اعطاء ما لا ينبغي ومنع ما ينبغي : وقال سفيان الثوري رحمه الله . الحلال لا يتحمل الاسراف ، وقال بعض العلماء : ثلاثة تمنع عنهم الرحمة وتنزل بهم الشماتة في ثلاثة احوال احدهم المبذر في ماله عند نزول الفاقة به ، الثاني الشره اليه حين تصيبه المصيبة ، الثالث الظالم المعتدي حين تنزل به العقوبة ، ولهذا المعنى شعر

وكان المال يأتينا وكنا ... نبذره وليس لنا عقول

فلما ان تولى المال عنا ... عقلنا حيث كان لنا الفضول

الوصف الخامس خلف الميعاد ، اعلم ان خلف الميعاد يتصف به اللئام وتأباه الكرام لقبح صورته وشناعة سمعته ، وهو من اركان النفاق ومساوىء الاخلاق ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : علامة المنافق ثلاثة اذا حدث كذب واذا ائتمن خان واذا وعد اخلف ، وقال ابو الحسن المدائني كان عمر بن عبد العزيز لا يكاد يعد بحاجة توقيا للخلف فانه يزيل الهيبة . وقال داوود بن عبد الله في وصيته : انجز اذا وعدت واتق الخلف فانه يزيل الهيبة ويذهب بهاء

الوجه ، وقال بعض الحكماء من اخلف وعده فقد صعر خده وجفاه القريب وتوقاه الغريب ، ولهذا شعر

لاتكسبن عداوة ومودة بعد الصفا
بخلف وعد مرة اصل العداوة والجفا

ان الخلف من فروع الكذب وسنذكره ان شاء الله تعالى

الوصف السادس الكذب — اعلم ان الكذب وصف ذميم وخلق لئيم لاينفك صاحبه عن الفضيحة لمناقضة كلامه بالسهو ولا يكون لمقامه رتبة ولاتعلو له منزلة لاحتقار الناس به واستصغارهم اياه ونفورهم عنه وقلة ركونهم اليه ، لانه ان عاقد لم يوثق بعقده وان وعد لم يركن الى وعده وان ذكر شيئاً تسارعت اليه التهمة وان نزل به مكروه تراجعت عنه الرحمة ، كل ذلك لما قد علمته النفوس من مهانته وقلة امانته وان كان صادقاً ، وفي المعنى بيت مفرد

ومن آفة الكذاب نسيان كذبه وتلقاه ذاحفظ اذا كان صادقا

وقد سلب الله تعالى الكذب عن المؤمنين فقال تعالى — انما يفتري الكذب الذين لايؤمنون — وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الكذب مجانب الايمان وكان يقال الكذب لايقوم ديناً ولا دنيا ، وكتب عمر بن عبدالعزيز الى بعض عماله : اياك ان تستعين بكاذب في أمر يحتاج فيه الى الجميلة فانك ان تطع الكذوب تهلك . وقال عبد الله بن مروان الكذب فساد كل شيء . وحكي ان قيصر كتب الى كسرى : ان عرفني بما ضبطت به ملكك ؟ فكتب اليه بثمان خصال لم أكذب في جد ولا هزل قط ولم أخلف في وعد ولا وعيد قط وركنت للعقل لا للهوى وعاقبت للادب لا للغضب واشربت قلوب الرعية المحبة من غير جراة واودعت قلوبها هيبة من غير ضغينة وعمرت بالكفاف

ومنعت الفضول . وقيل تعدى ابن أبي حاتم على رجل من أهل الفضل وسأله أي الاشياء أثقل عليك؟ قال عداوة الصديق ورد السائل ، قال فأي الاشياء أوضع للرجال. قال كثرة الكلام والثقة بكل أحد واللسان الكذب. وقيل الصدق عز والكذب ذل واهانة للنفس . وكان يقال الكذب من ذهاب المروءة واهانة النفس وقلة الحياء . ولهذا شعر لاهل الفضل

لايكذب المرء الا من اهانته أو عادة سوءها من قلة الادب

لجيفة الكلب عندي خير رائحة من كذبة المرء في جد وفي لعب

وقال غيره

وما شيء اذا فكرت فيه باذهب للمروءة والجمال

من الكذب الذي لاخير فيه وأبعد بالبهاء من الرجال

واعلم ان دواعي الكذب ثلاثة أشياء . أحدها ان يجتلب به نفعاً أو يدفع به ضرراً فيرى ان الكذب أسلم له واغنم فيرخص لنفسه فيه لاجل ذلك ، الثاني انه يؤثر ان يكون حديثه مستغرباً وكلامه مستظرفا ولا يجد فيما يزين به حديثه من الصدق فيستعير الكذب ، الثالث هو أن يقصد بالكذب وصمة بغيض فيسمه بالقبائح وينسب اليه الفضايح ، وهذه الدعاوي تاباها النفوس الابية والهمم العلية سيما نفوس الملوك لشرفها عن الرذائل وترفعها عن النقائص الا انه ربما مست الحاجة الى استعمال قليل الكذب في كيد الاعداء وتألف البعداء ، فان مثله مثل سم يقتل بانفراده ويدخل في بعض الادوية المركبة فتصير دواء شافياً

الوصف السابع الغيبة ، اعلم ان الغيبة مع تحريمها شرعا وعقلا هي عين العجز واللؤم ودليل النقص ، تاباها العقول الكاملة والنفوس الفاضلة لما فيها من

انحطاط الرتبة وانخفاض المنزلة . قال عليّ بن أبي الحسين: الغيبة ادام كلاب الناس . وقال عدي بن حاتم الغيبة مرعى اللئام . قال وسمع قتيبة بن مسلم رجلا يغتاب رجلا . فقال أما والله لقد تلمظت بمضغة طال ما لفظتها الكرام . وقال بعض الحكماء: من أكثر من عيوب الناس سهل عليه الاكثار، وانه انما يطلبها بقدر ما فيه منها، واحسن القائل

اذا أنت عبت الناس عابوا واكثروا ... عليك وابدوا منك ما كنت تستر
اذا ما ذكرت الناس فاترك عيوبهم ... فلا عيب الا دون عيبك يذكر
فان عبت قوماً بالذي ليس فيهم ... فذلك عند الناس والله أكبر
وان عبت قوماً بالذي فيك مثله ... فكيف يعيب العور من هو أعور

وقال الوليد بن عقبة بن أبي معبد: كنت أسير مع أبي في موكبه فلصق اليّ رجل وجعل يغتاب رجلا غائباً، فسمعه أبي فالتفت اليّ وقال: ويحكَ أما علمت ان الملوك ينزهون اسماعهم عن الخنا كما ينزهون ألسنتهم عن الكلام به فان المستمع شريك القائل، ولقد نظر الى حيث ما في وعائه فافرغه في وعائك وحكي ان بهرام ملك العجم ولى قائدا من قواده نحو ارض مما يلي ارض الترك فبلغه عنه انه يكثر من غيبة خاقانه. فقال: هذا دليل عجزه وضعفه عن مقاومته، ثم عزله وولى غيره . وقال أبو الاسود في المعنى شعرا

وذي حسد يغتابني حيث لا يرى ... مكاني ويثني صالحا حيث يسمع
تورعت أن أغتابه من ورائه ... بما ليس فيه وهو لا يتورع

الوصف الثامن الغضب، اعلم ان الغضب وصف طبيعي ركبه الله في الحيوان ليكون له به الانتقام من المؤذي له، وسببه هجوم ما تكرهه النفس ممن هو دونها، والحادث عن الغضب السطوة والانتقام، فاذا أفرط وجاوز حده سلب العقل

وحجب عن صواب الرأي فيصير الرأي وصاحبه مقطوع الحجة قليل الحيلة ، وربما عاد ضرر الغضب ونكايته على الغضبان دون المغضوب عليه ، وقد يظهر ذلك في نفسه وجسده ، والعاقل في حال شدة غضبه ليس بينه وبين المجنون فرق وبهذه الاوصاف صار قبيحاً مذموماً ، قال صلى الله عليه وسلم : الغضب يفسد الايمان كما يفسد الصبر العسل ، وقال عليه الصلاة والسلام : ليس الشديد بالصرعة انما الشديد من ملك نفسه عند الغضب ، وقال عليه السلام : من كظم غيظاً وهو قادر على انفاذه ملأ الله قلبه أمناً وايماناً . وقال بعض الحكماء الغضب أوله جنون وآخره ندم . وقال آخر الغضب : على من لا يملك عجز وعلى من يملك لوم . وكان يقال ما كثر من كثره الغي ولا قوي من قوّاه الظلم ولا ملك من ملكه الغضب وكان يقال ليس للملك ان يغضب لان القدرة من حاجته ، وليس له ان يكذب لانه لا يقدر أحد على استكراهه على غير ما يريد ، وليس له ان يكون حقوداً لان خطره عظيم عن المجازات . واعلم أن الذين كان منهم الفعل القبيح لشدة الانتقام في وقت غيظهم انما كان ذلك الوقت ، فينبغي لمن ثار به الغضب عند هجوم ما يغضب أن يكف ثورته بحزمه ويطفئ ناره بحلمه ليسلم من الندم في العواقب ، والذي يسكن الغضب عند هيجانه خمسة أسباب أحدها ان يذكر الله تعالى عند غضبه فان ذلك يدعوه الى الخوف منه والخوف يبعثه على الطاعة أو بالعفو فيزول عنه الغضب ، فقد ذكر انه مكتوب في التوراة يا ابن آدم اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب . وقيل ان ملكاً من ملوك الفرس كتب كتاباً وناوله لوزيره وقال له : اذا رأيتني غضبت فاتركه بين يدي وكان فيه مكتوب ، مالك وللغضب انما أنت بشر ، ارحم من في الارض يرحمك من في السماء ، قال فكان اذا غضب ذلك الملك ناوله الوزير ذلك الكتاب فيسكن غضبه . السبب الثاني ان يتذكر عند

الغضب ثواب العفو وحسن جزاء الصفح فيقهر نفسه على ردع الغضب رغبة في الثواب وما وعد الله به العافين عن الناس ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ينادي مناد يوم القيامة من له أجر على الله تعالى فليقم، فيقوم العافون عن الناس، ثم تلا — فمن عفى وأصلح فأجره على الله — الثالث ان يتذكر انعطاف القلوب عليه وميل النفوس اليه عند العفو وكظم الغيظ فيمنعه الثناء بالجميل من مطاوعة الغضب . الرابع ينتقل من الحالة التي عليها الى حالة أخرى فانه اذا فعل ذلك زال عنه، وكان هذا شعار المأمون اذا غضب. الخامس ان يتذكر ما يؤول اليه الغضب من الندم ومذمة الانتقام لاسيما انفاذه فيمن لايستطيع الدفع عن نفسه فهذه الاسباب الخمسة اذا تدبرها الملك وتذكرها في أوقات الرضى كان أحرى ان يتصورها في أوقات الغضب فيصده عن انفاذ الفعل والافراط في النكال والانتقام

الوصف التاسع العجب — ان العجب وصف ردىء يسلب الفضائل ويجلب الرذائل ويظهر الحمق ويجلب المقت ويخفي المحاسن ويشهر المساوىء ويفضي الى المهالك ، قال الله تعالى — ويوم حنين اذ اعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين — وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : الاعجاب ضد الصواب وآفة الالباب، وقال بعض الحكماء اعجاب المرء بنفسه أحد حساد عقله ، وقال آخر : العجب فضل حمق وتيه ينتجها الكبر وكان يقال ما اعجب بنفسه عاقل لان العجب فضل حمق لم يدر صاحبها أين يذهب به فصرفه الى الكبر . وحكي ان رجلا نظر الى المهلب بن أبي صفرة وعليه حلة فاخرة يسحبها ويمشي بالخيلاء، فقال له يا أبا عبد الله ماهذه المشية التي يبغضها الله ورسوله ؟ فقال له المهلب أو ماتعرفني ؟ قال بلى أعرفك أولك نطفة مذرة وآخرك

جيفة قذرة وحياتك في مابين ذلك بول وعذرة ، قال فخجل المهلب وأطرق منه حياء . وقد نظم هذا الكلام محمود الوراق فقال

عجبت من معجب بصورته ... وكان بالامس نطفة مذره
وفي غد بعد هيئته ... يصير في اللحد جيفة قذره
وهو على تيهه ونخوته ... ما بين جنبيه يحمل العذره

وقال بعض الحكماء : عجب الملك بتدبيره مفض الى تدميره . وأنشدني بعضهم .

اذا المرء لم يرض ما أمكنه ... ولم يأت من أمره مأمنه
وأعجب بالعجب فاقتاده ... وتاه به التيه فاستحسنه
فدعه فقد ساء تدبيره ... سيضحك يوماً ويبكي سنه

واعلم ان من لم يحجب عنه أسباب العجب المغضبة وقع فيه فيهلك في غالب الاحوال ، ومن أقوى أسبابه مدح المتملقين الذين يجعلون التملق دأبهم والنفاق ديدنهم فيمنع نفسه من تصديق المدح ، ومتى كثر المدح وجاوز الحد صار كذباً وملقاً ، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال : اياكم وكثرة المدح فانه الذبح . وقال بعض الحكماء من رضي ان يمدح بما ليس فيه أعان الساخر منه. وقال بعض العلماء : قبيح باللبيب ان يعجب بنفسه عند مدح المادح أو يغضب عند سماع القادح قبل ان يتفقد أعماله ويعلم ما عليه وماله والا يصير النساء أعقل منه فان احداهن اذا وصفت وجهها بما تحب أو تكره امتحنت ذلك بالاطلاع في المرآة . وكذلك ينبغي للعاقل ان يمتحن أحواله بأن يكل نفسه الى غيره من أهل الثقة والامانة والادب والديانة في اختيار محاسنه ومساوئه وعيوب نفسه التي فيه ويستنصحهم في ذلك ، فان الانسان قد يخفى عليه عيب

نفسه لاسيما لاستيلاء الهوى على عقله ، فاذا أراح نفسه من ذلك فقد نال غاية الشرف بانعطاف القلوب عليه وميلها اليه

الوصف العاشر — الكبر ، اعلم ان الكبر خارج بالنفس عن حدّ الاعتدال وحقيقته استعظام أو احتقار غيره ، وسببه علو اليد والتميز بالمنصب أو النسب أو الفضل ، ومتى جاوز حدّه وتعدى طوره آل الى البغي والعتو فسلب الدين وأفسد الايمان وخفض المنزلة وحط الرتبة ، لانه يطمس من المحاسن ما انتشر ويسلب من الفضائل ما اشتهر ويكره الصدور ويوجب النفور . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لايدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمه العباس رضي الله عنه، أنهاك عن الشرك بالله وعن الكبر فان الله تعالى يحتجب عنهما. وحكي ان سليمان بن داود عليهما السلام جلس يوماً على بساطه بجنوده من الانس والجن والطير والوحش ثم أمر الريح فرفعت البساط نحو السماء حتى سمعوا زجل الملائكة بالتسبيح وسمعوا قائلاً يقول: لو كان في قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر لخسفنا به أكثر مما رفعناه. وقال بعض العلماء ان للدولة أمراضاً يخاف عليها أن تموت بها ، أخطرها أربعة أشياء أحدها مايعرض له من الغضب ، فان دولته في هذه الحالة تضطرب لخروجه عن حدود السياسة والثاني البغي ، والثالث مايعرض له من الحرص فانه اذا أحرص ظلم وعسف الرعية، الرابع هجان الرعية فاذا عرض له شيء من ذلك فليبادر بالحسم . وحكى المدائني قال: رأيت رجلا بعرفات وهو على بغلة في مركب من الذهب والغلمان والخدام بين يديه والناس حوله وهو لايعبأ بأحد منهم فنظرت اليه متعجباً وقلت له ياهذا اليس هذا موضع التكبر انما هو موضع التواضع والخشوع فانزل عن بغلتك واصرف الخدام من بين يديك في هذا الوقت واقبل على الله تعالى بخضوع

وخشوع فانه يقبل عليك برحمته ورضوانه. قال فلم يلتفت الي وتركته وانصرفت فلما كان العام المستقبل عبرت بالجسر ببغداد فوجدت ذلك الرجل أعمى يتصدق من الناس ، فقلت له أنت كنت في العام الماضي على بغلة بعرفات؟ قال نعم أنا ذلك الرجل ، قلت فما بالك؟ قال لما تكبرت في موضع يتواضع الناس فيه وضعني في موضع تكبر عن مثله الناس . وقال بعض أهل الادب

يامظهر الكبر اعجاباً بصورته ... مهلاً فانك بعد الكبر مسلوب
لو فكر الناس فيما في بطونهم ... مااستشعر الكبر شبان ولا شيب
ياابن التراب ومأكول التراب غداً ... اقصر فانك مأكول ومشروب

واعلم ان من قطع أسباب الكبر عنه وازداد لله تواضعاً وخشوعاً وتعظيماً لله سبحانه وتعالى فقد سلك مسالك الشرف ودرج في مدارج النعم وأزاح عنه المقت واستعطف اليه القلوب

الوصف الحادي عشر الحسد — اعلم ان الحسد داء عظيم من ادواء النفس لا يشفى سقيمه ولا يرقى سليمه مع مافيه من افساد الدين واضرار البدن ، لان الحاسد يدوم همه ويكثر غمه ويذوب جسمه ويذهل عقله عن الصواب وحسن الرأي ويشتغل قلبه عن صحيح الفكر ، وهو أقبح من البخل لان الحاسد يحب ان لا ينيل أحداً شيئاً مما لا يملكه فكان أعظم قبحاً وأشد ذماً ، وليس شيء أعظم ضرراً من الحاسد ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب. قال بعض الحكماء : يكفيك من الحسود أنه يغتم وقت سرورك واذا رزق الله المحسود نعمة كانت على الحاسد نقمة ، وكان يقال الحسد نار في الجسد ، وكتب بعض الحكماء الى صديق له : قد حسدك من لا ينام دون الانتقام وطلبك من لا يقصر دون الظفر بك حذرك بعد الثقة بالله تعالى على

حسب ذلك ، وقيل كان مكتوباً على فص خاتم بعض الملوك : الحسود لا يسود أبداً والذي خبث لا يخرج الا نكدا ، وقال عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه لن يصل الحسد الى المحسود حتى يصيب الحاسد نفسه بغم دائم وعقل هائم وهمّ لازم ، وما رأيت ظالماً يشتبه بالمظلوم الا الحاسد . ولبعض أهل الادب شعر

كم من حسود أطال الله حسرته ... فاغتاظ هماً على الايام من حسده
وحاسد الناس طول الدهر في تعب ... يزيده الحسد المذموم في كمده

ولبعضهم في المعنى شعر

ان الحسود الظلوم في كمد ... تخاله من يراه مظلوما
ذا تعس دائم على تعس ... يظهر منه ما كان مكتوما

وقال آخر

اصبر على كيد الحسو ... د فان صبرك قاتله
النـار تأكل بعضها ... اذ لم تجد ما تأكله

اعلم أن اسباب الحسد ثلاثة أشياء ، احدها بغض المحسود قبل ظهور النعمة عليه ، فاذا ظهرت عليه نعمة أو اشتهرت عنه فضيلة اثارت البغضة القديمة حسداً على ذلك . الثاني ان يظهر على المحسود نعمة شاملة أو فضيلة كاملة يعجز عن تحصيلها الحاسد وتقصر همته عن ادراكها ويكره تقدمه عليه بذلك واختصاصه به دونه فيصير حسداً . الثالث أن يكون بالحاسد شح بالفضائل المكتسبة وبخل بالنعم الموهبة وليس يقدر على منعها منه ودفعها عنه اذ هي ليست في يديه ولا مفوضة اليه ، فيحسده على منحة الله تعالى من عطائه العميم وفضله الجسيم ، وهذا السبب داء يس له دواء . فان كان ذا قوة واقتدار جره حسده على الانتقام من المحسود ، وان كان ذا عجز وضعف حدث عنه هم دائم وسقم زائد . فينبغي ان يحجب عنه أسباب

الحسد ويأنف من تعاطيه ويستنكف من هجنة مساويه ليدفع ضرره ويتوقى شره ولا يغالب قضاء الله تعالى فيرجع مغلوباً ولا يعارضه في أمره فيصير مسلوباً. وسنذكر من تأثير الحسد وضرر عواقبه حكاية نختم بها هذا الفصل ذكر: أهل التاريخ ان بهرام بن يزدجر ملك الفرس كان صديقاً لخاقان ملك الترك وكان بينهما مهاداة وتلطف، وان بهرام اشتهر أمره بالقوة والشجاعة والكرم وحسن السيرة والعدل في الرعية، فحسده خاقان على ذلك حسداً شديداً وكان له وزيران فذكر ذلك لافضلهما وساله التدبير في هلاك بهرام، فقال له الوزير: ان كتم الملك ذلك سعيت له فيه، فقال سأكتمه، فلما لبث مدة سأل الوزير عما صنع فيه فاستصبره، فلما تكرر ذلك منه قال الوزير أيها الملك لا حيلة لي فيما كلفتنيه وانما أستصبرك رجاء أن يزول ذلك من قلبك فاني رأيت الحاصل لك عليه انما هو فرط الحسد، وتدبير الحاسد راجع عليه بالمضرة واخاف أن ينصب الملك مكيدة فيقع فيها، قال فغضب خاقان عليه ثم أطلع وزيره الآخر على ذلك وكان فيه شر وخبث وحسد وحيلة، فتكفل لخاقان بنيل مراده ثم ندب له فاتكا من فتاك الترك لم يكن في الترك اشد حيلة منه ولا اجرأ منه في ذلك، وضمن له ان قتل بهرام ونجا أعطاه رئاسة الجند وجعل ذلك خالداً في ولده، وان هلك دون مرامه شرف ولده تشريفاً يخلد ذكره فيه ابدا. فاستصحب الفاتك اخاه معه وتوجها الى دار ملك بهرام، فلما وردا قصر بهرام قال الفاتك لاخيه بعني لبعض خدمة قصر بهرام، فلم يزل يتلطف حتى باعه من حافظ القصر الموكل بحراسته فجعل ذلك الفاتك يتحبب الى مولاه بحسن الطاعة ونصح الخدمة حتى وصل عنده واختص به دون غيره، وان سيده تخلف يوماً عن حراسة القصر لمرض ناله فاستناب الفاتك فعمد ذلك الفاتك الى خزائن سلاح بهرام وكانت بجوار قصره

فألقى فيها نارًا وشاغل اصحابه عن المبادرة الى اطفائها حتى اشتد عملها فارتفعت الضجة فخرج بهرام من قصره على فرس ولا سلاح معه، فانتهز الفاتك فيه الفرصة ودنا من بهرام وفي يده خنجر وقد أخفاه في كمه فنظر اليه بهرام في ضوء النار فرأى دلائل الريبة ظاهرة عليه فتفرس فيه الشر. فجمع رجليه ووثب من ظهر فرسه فاذا هو على الفاتك وقبض على يديه فوجد الخنجر فاخذه منه بيمينه ولفه في شماله وانطلق به يقوده حتى ادخله القصر فخلا منه وسأله عن أمره فصدقه الحديث، فقال له بهرام اما انت فلك ذمتنا على حفظ نفسك والاحسان اليك اذا كنت انما أتيت الذي أتيت طاعة لخاقان ومناصحة له وبذلت نفسك في مرضاته، ومثلك من يصطنع ونحن نحفظ عليك نفسك التي ضيعها صاحبك، غير اننا نريد أن نحبسك مدة ثم نطلقك ونحسن اليك لغرض نريد أن نفعله فدلنا على اخيك؟ فدله عليه فارسل اليه من قبض عليه وحبسهما في قصره مكرمين واخذ عليهما أن يكتما أمرهما. وكان قد رفع الى بهرام ان رجلا من رعيته زارعًا في بعض الرساتيق له ابنة لم يسمع بامرأة خلقت على وجه الارض مثل صورتها طولها ستة أذرع وشعرها ينسحب على مواطئ قدميها وجلدها في لونه وصفائه كأنه قشور الدرّ وهي متناسبة الخلق بديعة التركيب دقيقة التخطيط لا يستطيع من رأى الى عضو من أعضائها أن ينتقل بصره عنه الا بعد مجاهدة النفس واذا قابلت عين ذي لب اضطرب قلبه فلا يسكن حتى يضمها الى صدره ويرشف ريقها. وكان لها مع ذلك الحسن الباهر ادب وعقل وحزم فشرهت نفس بهرام اليها ثم تنزه أن تكون تحته ابنة زارع فقمع نفسه عن هواها أنفة ونخوة، ثم نهى أن يذكرها له احد وامر العامل على البلد التي هي فيها أن يتفقد أمرها ومنع أباها من انكاحها، حتى اذا حدث عليه خاقان ما ذكرناه

أحضر رجلا من اصحابه ذا دهاء ومكر وحيلة فندبه لمكيدة خاقان وأمره بما سنذكره في أثناء الحكاية واعطاه من الذهب والفضة ونفائس الجواهر وذخائر الملوك مايظن انه يحتاج اليه في عمل المكيدة، وامره أن يسير متنكراً في زي تاجر الى والد تلك الجارية التي ذكرناها فيشتريها منه بما يريد ليستعين بها على ماندبه، اليه وأرسل الى العامل على بلد ابيها يأمره أن يضيق على ابيها ويطالبه بما يعجز عنه من المال ففعل ذلك . فجاء التاجر واشترى ابنته بوزنها ذهباً وهذا شيء كان يفعله أهل الخراج من الفرس اذا ضيق السلطان عليهم باعوا أولادهم قال ثم ان التاجر قصد بها بلاد الترك حتى حل بمدينة خاقان فقصد الوزير الساعي لبهرام في المكيدة واهدى له هدايا نفيسة وتقرب عنده بالتحف الى أن آنس به الوزير وخف على قلبه ولبث عنده عاماً، ثم قال له عندي أيها الوزير تحفة ولك عندي حب شديد ولي عام انازع نفسي باتحافك بهذه التحفة التي لم يظفر احد بمثلها، وكانت نفسي لم تسمح بها فقد سمحت بايثارك، فقال وما هذه التحفة؟ قال جارية طولها ستة اذرع وشعرها ينسحب على مواطئ قدميها كأنما كسي جلدها قشور الدرر ،قال فلما سمع الوزير الصفة استفزه الهوى اليها وجعل يتقصى احضارها ،فلما أحضرها ووقع بصره عليها لم يملك نفسه ان وثب عليها فعانقها وضمها وقبلها ورشفها، ثم التفت الى سيدها وقال له: سل ماشئت، واحكم، فقال حكمي القرب منك والحضور عندك ،قال هذا لك وخذ من المال ماشئت. قال لاحاجة لي فيه ، ثم خرج مبادراً الى باب قصر الملك خاقان فقال لبعض ثقاته ان عندنا نصيحة نخاف فوتها، فادخلوه على خاقان في الحال فسأله عن حاجته ونصيحته ؟فقال اني قصدت الملك بتحفة لاتصلح الا له، فسألت الوزير فلانا أن يوصلها الى الملك فاستأثر بها واعتدى و بذل مالا كثيراً على كتمان ذلك فلم

أفعل ذلك، فقال وماهي التحفة، قال جارية طولها ستة أذرع وصفتها كذا وكذا فارسل خاقان من نفسه رجالا من ذوي النسك في دينهم وأمرهم بالهجوم عليه وحفظ الحال التي يرونه عليها والاتيان به و بالجارية محجوبة عن الابصار، ففعلوا ذلك وقالوا انهم أبصروها بين يديه جالسة مجردة، فسألها خاقان عما نال منها فقالت عانقني وقبلني وجردني ونظر الى سائر بدني وهم أن يقتضي مني فهجم هؤلاء القوم عليه، فامر خاقان أن تقطع يداه وتقلع عيناه ويقطع لسانه وشفتاه ففعلوا ذلك بالوزير، ثم ان خاقان خلا بالجارية وسالها. أبكر هي أم ثيب؟ فقالت بل بكر، فلم يملك نفسه ان افترعها فلما نزع منها ازالت عن رأسها قناعها فمسحت به ذكر الملك، فاحس به من ساعته بنمل، ثم بعد ذلك ظهر فيه نفخ ثم ابتدأ فيه الوجع الشديد، فعلم انه سم فتناول موسى وقطع به ذكره وأمر بالجارية فصرفت عنه وحفظت وطلبوا مولاها فلم يظفروا به، وان خاقان عالج نفسه حتى برئ ثم أحضر الجارية فسألها عن نفسها وأهلها و بلدها فاخبرته انها لم تكن تعلم من أمر مولاها اكثر من انه تاجر اشتراها من ابيها بوزنها ذهباً. وسالها عن قناعها فقالت كذا نبه سيدي وعرفني انه يهديني للملك وشأن الملوك اذا واقع احد منهم جارية ونزع منها انها تمسح ذكره بما على رأسها كائناً ما كان فان لم تفعل ذلك سقطت من عين الملك وتعرضت لسخطه. فعلم خاقان انها مخدوعة معذورة فلم يتعرض لها بسوء، فلما عاود صاحب بهرام اليه واخبره بما تم له من المكيدة أمر بهرام باحضار الفاتك التركي واخيه واحسن اليهما، وكتب معهما كتاباً الى خاقان يقول ان الحسد والبغي أورداك واوردا وزيرك السوء موارد الندم، وقد كنا أنزلناك بمنزلة الاخ قبل ان نعرف خبث نيتك فينا وحسدك لنا فلما علمنا ذلك اردنا بك ما أردته بنا فقضى الله لنا عليك بنجاح السعي لعلمه

بصلاح نيتنا وخبث نيتك ، والآن فاتق الله على نفسك فلسنا نعرض لك بسوء اذا لزمت حسن النظر لنفسك بمسالمتنا . قال فلما انتهى الكتاب الى خاقان عرف ممن اصابه ما أصابه ، ثم انه داخلته الحمية والغيرة فتجهز لقتال بهرام في امم من الترك لاتحصى وسار الى أرض فارس فانتخب له بهرام اجنادا من شجعان الفرس ولقيه فهزمه بهرام وقتل رجاله ونهب أمواله واستولى على بلاده وكان اثارة هذه الفتنة الحسد والبغي

الوصف الثاني عشر العجلة — اعلم ان العجلة رديئة العاقبة مذمومة الامر ينتجها طيش وتهور ، أولها ملامة وآخرها ندامة لايفارقها الزلل ولا يتعداها الفشل . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم العجلة من الشيطان ، وكان يقال لايواجه العجول محمودا ولا الغضوب سرورا ولا الشره غنى ، وقيل انه اجتمع أربعة ملوك من الروم عند حكيم من حكمائهم ، فقالوا أوصنا أيها الحكيم وصية ننتفع بها مما صار الينا من أمر الملك ، فقال من استطاع منكم ان يمنع نفسه من أربعة أشياء فهو حقيق ان لاينزل به مكروه ، وهي العجلة واللجاجة والغضب والتواني فثمرة العجلة الندامة وثمرة اللجاجة الحيرة وثمرة الغضب البغضة وثمرة التواني الذلة وكان يقال التثبت في النوائب معقل اهل التجارب والعجلة في الامور داعية الى كل محذور ، وأوصى ملك من ملوك اليمن من يخلفه من بعده ، فقال أوصك بتقوى الله تعالى فانك ان تتقه يزيدك ويرضى عنك ومتى رضي الرب عن عبده أرضاه ، وآمرك ان لاتعجل فيما لاتخاف فيه الفوت فان العجلة ندامة واذا شككت في أمر فشاور واذا اتهمت فاستبدل واذا قلت فاصدق واذا وعدت فانجز واذا أوعدت في حق فانفذ ، واعلم انك اذا ضبطت حاشيتك ضبطت قاصيتك والسلام . واعلم ان العجلة مذمومة الا في افعال البر وصنائع المعروف

فانها حسنة محمودة ، وقال بعض الحكماء: على الملك ان يعمل بخصال ثلاث تأخير العقوبة في سلطان الغضب وتعجيل مكافأة المحسن والاناة فيما يحدث فان له في تأخير العقوبة امكان العفو وفي تعجيل المكافأة بالاحسان المسارعة في الطاعة من الرعية وفي الاناة ايضاح الرأي وانفساح الصواب ، وذكر بعض الملوك في وصية له لولي عهده: اذا هممت بخير فعجله واذا هممت بخلافه فتأن فيه وارحم ترحم. وكان يقال العجلة مذمومة قبيحة الا في ثلاثة أشياء ، في اصطناع المعروف اذا أمكن وفي تزويج البكر اذا خطبت وفي دفن الميت

الوصف الثالث عشر المزاح - اعلم ان المزاح شاغل عن الامور المهمة مذهل عن النوائب الملمة يذهب الهيبة والوقار وليس لمن وسم به مقدار ، يزيح عن الحقوق ويفضي الى العقوق ويشغل خواطر الاصحاب ويجانب محاسن الاداب ويذهب عنها ويجرئ السفهاء ، أوله حلاوة واخره عداوة ، قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: اتقوا المزاح فانه حمقة تورث الضغينة ، وقال اكثم ابن صيفي: المزاح يذهب بالبهاء والمهابة فاحذروه ، واوصى مسلم بن قتيبة أولاده. فقال لاتمازحوا فيستخف بكم نظراؤكم ويجترىء عليكم أكفاؤكم وهو مسلبة للهيبة مقطعة للصحبة أوله فرح وآخره ترح. وقيل اذا مازح السلطان هان عند رعيته واذا سفه ذهبت حرمته ، وقيل في منثور الحكم: من قل عقله كثر هزله وقيل المزاح معدن الداء عسير الدواء ، وقيل خير المزاح لا ينال وشره لا يقال وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه من اكثر من شيء عرف به ومن مزح استخف به ومن كثر ضحكه ذهبت هيبته ومن عرض نفسه الى التهمة فلا يلومن من أساء به الظن ، وقال بعضهم لابنه يابني لاتمازح الشريف فيحقد عليك ولا

الدنيء فيجتريء عليك ، وكان يقال: لكل شيء بذر وبذر العداوة المزاح ولهذا شعر

اترك مزاح الرجال ان مزحوا　　　لم أر قوماً تمازحوا سلموا
يفني مزاح الفتى مروءته　　　ورب قول يسيل منه دم

وقال آخر شعر

ولقد حبوتك يابني نصيحتي　　　فاسمع مقال أب عليك شفيق
أما المزاح مع المراء فدعهما　　　خلقان لا أرضاهما لصديق
اني بلوت فلم أكن أحمدهما　　　لمجاور مني ولا لرفيق

واعلم ان النفوس متى سلك بها الجد وألزمت به سئمت وضجرت واستقلت حمل الحمق وربما أفضى بها الى ضيق الصدر وسوء الخلق، فينبغي ان يريحها بقليل المزاح ويسير الدعابة وليكن كما قال أبو الفتح

أفد طبعك المكدور بالجد راحة　　　ترحه وعلله بشيء من المزح
ولكن اذا أعطيته المزح فليكن　　　بمقدار ماتعطي الطعام من الملح

وقال صلى الله عليه وسلم : اني لامزح ولا أقول الا حقا ، وقال سعيد بن العاص لابنه: يابني اقتصد في مزاحك فان الافراط فيه يذهب بالبهاء ويجريء عليك السفهاء والاقتصار عنه بالكلية يبغضك الى اصحابك ومؤانسيك فامزح معهم وليكن بمقدار ما يحصل لهم به الانس منك من غير افراط وليحذر مع هذا الشرط ان يمازح الآدمي عدوه فيصير ذلك طريقا الى اعلان المساوئ : فقد قال بعض الحكماء اذا مازحت عدوك ظهرت عيوبك

الوصف الرابع عشر الضحك . اعلم ان الضحك يضاهي المزح في المذمة والقبح ولا تقتضيه حال الملوك وأرباب المناصب لما فيه من زوال الهيبة وذهاب

الوقار وقلة الادب ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابي ذر الغفاري رضي الله عنه : اياك وكثرة الضحك فانه يميت القلب ويذهب بهاء الوجه ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه من كثر ضحكه قلت هيبته ومن أكثر من شي عرف به . ولكن لابد ان يرى الانسان أو يسمع ما يغلب عليه الضحك منه أو تمس الحاجة اليه لايناس الجليس ، فينبغي اذا طرأ شيء من ذلك ان تجعله تبسما من غير قهقهة واسترسال ، وليراع فيه الشرط الذي قدمناه في المزح

الوصف الخامس عشر الغدر . اعلم ان الغدر بعد عقد العهد حرام وعاقبته هلاك ودمار اذ لا نقض حتى ينقضي أمده وتنقضي مدده ، قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود – وقال تعالى فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم . وروى سليمان بن عامر قال ، كان بين معاوية وبين الروم عهد فسار معاوية في أرضهم كأنه يريد ان يغير عليهم ، فقال له عمر بن عبسة ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحل عقده ولا يشدها حتى يمضي أمدها أو ينبذ اليهم على سواء ، قال فانصرف معاوية ذلك العام ، وقال بعض الحكماء : الغدر يسرع الى الهلك ويفضي الى زوال الملك . وكان يقال لكل عاثر راحم الا الغادر فان القلوب مجمعة على الشماتة بصرعه ، وقال حكيم لبعض ملوك زمانه أوصك بخمس خصال ترضى بهن ربك وتصلح بهن رعيتك لا يغرنك ارتقاء السهل اذا كان المنحدر وعراً ولا تعدن وعدا ليس في يديك وفاؤه واعلم ان الامور بغتة فكن على حذر واعلم ان الامور جزاء ومكافأة فاتق العواقب واياك والغدر فانه أقرب الاشياء صرعة . واوصى أبي مسلم الخراساني قوماً بعثهم الى منازل قوم عدو لهم : اشعروا قلوبكم الجرأة فانها سبب الظفر واكثروا من ذكر الضغائن فانها تبعث على الاقدام والزموا الطاعة فانها حصن

المحارب واحذروا من الغدر فان الغادر مصروع . ويحكى ان موبذان : قال لفيروز ملك العجم لما عزم على نقض العهد الذي كان بينه وبين الخنشوار ملك الهياطلة وخرج الى بلاده: أيها الملك ان الرب تعالى يمهل الملوك على الجور مالم يشرعوا في هدم أركان الدين فاذا شرعوا في ذلك لم يمهلهم ، فان عقدوا ميثاقا من أركان الدين فلا تنقضه ، قال فلم يلتفت اليه فيروز وخرج طالب الخنشوار فهزم جيشه وقتله واستولى على بلاده . وقد أوضحنا في هذا الباب من الاوصاف الذميمة والاخلاق اللئيمة ما احتمله كتابنا هذا وسنختمه بذكر عوارض رديئة ربما عرضت للملوك أو بعضها فأضرت بهم وأخرجتهم عن حدود الاعتدال وهي ثلاثة اعراض الاول والثاني الهم والغم فان هذين العرضين اذا طرآ واشتد افراطها فانهما يحدثان من الألم والأذى على النفس والجسم ما لا يمكن تلافيه ويؤديان الى التقصير في المطالب والقصور في التدبير مع ما يظهر في الجسم من النحول وفي العقل من الذهول ، وهذان العرضان لا مندوحة لاحد عنهما ولا بد من طروءهما في مقابلة الحوادث الملمة والنوائب المهمة ، فالهم هو خوف ما يتوقع حدوثه وطروءه في الزمن المستقبل من الامور المهمة ، والغم هو كمد النفس وحزنها على ما ذهب اليه الزمان الماضي ، فينبغي للملك ان يريح نفسه وجسده عند طروء أحدهما وينال شيئاً من اللذة والسرور بالاشياء المباحة في الشرع بقدر ما يبلغ به مصلحته ويحفظ به صحته ، وينبغي ان يكون مقدار اصابته من ذلك ما يحصل به الاعتدال من غير افراط فيه فان الاكثار من اللهو يحصل به من الضرر فوق ما يحصل به من الغم فانه يلهيه عن مصالح المملكة ، والاعتدال في ذلك أسلم ، وقد كان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله اذا طرأ عليه أحد هذين العرضين نزل الى الميدان وجعل يلعب حتى بالكرة والصولجان نهاره

فاذا جن عليه الليل بسط رقعة الشطرنج وجعل يلعب حتى يغلب عليه النوم

العرض الثالث السكر من الشراب . اعلم ان السكر حرام في جميع الاديان وانما اختلفوا في عين المسكر ، وقد أجمع أهل العقل على قبح السكر مع تحريم الشرائع له وهو من الاعراض الرديئة المفضية بصاحبها الى البلايا والاسقام ، وقد ذكر أهل الطب ان الافراط من السكر ربما حدث منه في وقت السكت والاختناق وربما حدث منه انفجار الشريانات التي في الدماغ ويحدث منه في غير وقته الحميات الحارة والاورام الدموية والصفراوية وتحدث منه الرعشة والفالج ، هذا كله مع ما يجلب على صاحبه من فقد العقل وهتك الستر وافشاء السر والاشتغال عن درك المطالب ولا يكاد صاحبه يسمو له حال ولا يستقيم له أمر في تدبير ولا يزال منحط الرتبة عند نظرائه مسلوب الوقار في أعين الناس ، وأكثر ما ينصب الغوائل والمكايد للملوك في حال سكرهم ، هذا كله مع ما يؤول السكر بصاحبه في الآخرة الى العذاب المهين والنكال الدائم .

الباب السابع

في كيفية رتبة الملك وأوليائه في حال جلوسه وركوبه

اعلم ان ملوك الامم على اختلاف أجناسهم كانت لهم سنن وآداب يميزون بها وأقاموا أبهتهم بالمواظبة عليها يضيق كتابنا هذا عنها وعن شرحها ولا فائدة في ذكرها لان الشرع ورد بالنهي عن التشبه بها ، بل نقتصر في ذلك على مثال ما رتبه في ذلك الخلفاء من بني العباس اذ هم قدوة ملوك الناس ونذكر من ذلك قدر الحاجة على سبيل الاختصار فنقول

ينبغي للملك ان يجعل جلوس طبقات أصحابه وأعوانه وأوليائه على ثلاث

مراتب . المرتبة الاولى يجلس فيها الجند والغلمان الذين ليس لهم مزية على غيرهم المرتبة الثانية يجلس فيها القواد المتوسطون الذين قد ولوا الاعمال من قبل الامراء ومن يجرى مجراهم من الطواشية وغيرهم ، المرتبة الثالثة يجلس فيها الامراء والاكابر الذين يتولون الاعمال ويخطب لهم على المنابر وكبار الحجاب والعلماء والقضاة ، وهذه المرتبة تسمى دهليز الخاصة وهو القريب من الستر فاذا جلس الناس لا يختلط قوم بغيرهم ولا يعلو أحد منهم في الجلسة على من هو فوقه ويطرقهم الحجاب طول جلوسهم ، فاذا جلس أحد في غير مرتبته أقامه اليها ويجلس صاحب الحجاب ملاصقاً للوزير والباب الذي يوصل منه الى الملك لانه أول من يصل اليه ، ويكون الستر مسبلا على الباب ويمسكه البوابون الفحول ولا يطلقونه لاحد لاجل الاطلاع منه الى صحن الدار التي يجلس فيها الملك ، فاذا خرج الملك مع خدمه وجلس على سريره المفروش وقف على رأسه الخادم الخاص ويكون ممن له فطانة وصورة حسنة مقبولة ، ثم يخرج الخادم الحرمي صاحب الرسالة فيستدعى صاحب الحجاب فيدخل وحده ولا يشال الستر لكن بعضه حتى يقف في صحن الدار بين يدي الملك ثم يستدعى الوزير فيتقدم الحاجب ثم يمشي الى ان يقرب من السرير فينقدم وحده ويرجع عنه الحاجب افرادا له عما يعامل به سائر الناس من التقدم معه ، فيخدم الملك ثم يقف عن يمين السرير على نحو خمسة أذرع منه ، ثم يدخل أمير الجيش بعده فيمشي معــه الحاجب كما فعل بالوزير فيخدم الملك ثم يقف على يسرة السرير ثم يدعى بالحجاب فيدخلون وبالخدم الرؤساء فيدخلون ثم يدعى بالامراء القواد فيوصلهم الحجاب ويقفون على مراتبهم يمنة ويسرة على حسب محالهم ومواقعهم من المراتب ، ولا يتقدم أحد على غيره ، ثم يدعي بالعلماء والفقهاء والقضاة فيجلسون دون الوزير على يمنة السرير ثم

يستدعى رؤساء الاطباء فيقفون بارزين فاذا احتاج اشيء من علمهم كانوا حاضرين يعلمون به الملك بعد خروج الناس، ثم يستدعي بالغلمان والجند فيقيمون بارزين صفا مفردا خلف الناس، ثم يخرج الناس عن طبقاتهم بعد وقوفهم ساعة وبعد ان يلحظهم الملك ويشاهد حضورهم ويعرف من يتخلف من وجوههم وليحذر كل من يقف بين يدي الملك ان يتشاور أو يتحدث مع أحد، ثم يتخلف الوزير ساعة طويلة، وقد ينحى صاحب المرتبة الكبيرة من موضعه الى ان يشاور الوزير الملك فيما يحتاج الامر الى مشاورته، ومن أدب الوزير ان يأخذ المذبة الصغيرة ويروح على الملك بها ويكون صاحب الحجاب واقفا بالبعد بحيث اذا دعي أجاب، ثم يخرج الوزير بعد ذلك ومعه الحاجب فيجلسان في الدهليز وينظران الى أعمال الملك المهمة وحوائج العامة، ويرجع الناس الى مراتبهم وأعمالهم واذا أراد الملك ان يركب في موكبه فتمشي الخدم قدامه وهم متحفظون على أسلحتهم الى ان يوصلوه موضع الركوب فيركبوه وقد تقدمهم قطعة من الحجاب قدام الموكب يطرّقون ويمنعون أحدا من سلوك الطرقات، وتكون الخيل المسومة بأحسن العدد من جنب وقدام الملك ويكون الوزير وراء الملك بحيث اذا دعي أجاب ولا يحوج الملك الى الالتفات له بعنقه، فاذا استتم كلام الملك رجع الى وراء الملك، ويكون خلف الوزير رؤساء الخدم وسائر طبقات العسكر، ثم يتبع ذلك بغال الشراب وبغال الماء وتكون بارزة بحيث ترى ولا يزاحمها الموكب ويكون معه بغال الكسوة وفيها بغال معدة ويكون معها بغل عليه صندوقان يعد فيهما ما خف من الاطعمة، ويكون خلف الخدم خادم الجوائز والصدقات ومعه حقيبة فيها اصرار من خمسة دراهم الى مائة الى الف فاذا أمر الملك بمبلغ عرفه وأعطاه الى صاحبه، ويكون في الموكب الفقهاء والعلماء والفضلاء والمؤذنون

ليحصل بهم الرحمة ، واذا وصل الملك الى قصره تراجع الناس اجمع ، ولا يكثر الملك من الركوب فان هيبته كالاسد في قلوب أهل البلد من الذين حوله ولا تحجب فان ذلك مضر بالملك بل يكون التحجب والظهور بقدر الحاجة بهم فان السباع الكاسرة اذا لم تشاهد الراعي بلغت مرادها من الغنم

الباب الثامن

المشورة والحث عليها

اعلم ان المشورة عين الهداية وسبيل الرشاد الى الأمر وايضاح المبهم من الرأي ومفتاح المغلق من الصواب ، وقد حث الشرع عليها وندب الخلق اليها . وقد قال الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ـ واستغفر لهم وشاورهم في الامر ، قال الحسن البصري رضي الله عنه : أمره بالمشاورة ليستقر له الرأي الصحيح فيعمل به ، وقال الضحاك أمره بالمشاورة لما علم ما فيها من الفضل ومايعود منها من النفع ولان ارسال الخواطر الثاقبة واصالة الافكار الصافية لا يكاد يعزب عنها ممكن ولا يخفى عليها جائز والمستبد برأيه بعيد من الصواب قريب من الزلل ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس العقل بعد الايمان بالله تعالى التودد الى الناس وما استغنى مستبد برأيه وما هلك أحد عن مشورة واذا أراد الله بعبد هلكة كان أول ما يهلكه رأيه ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقحوا عقولكم بالمذاكرة واستعينوا على أموركم بالمشاورة

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : الاستشارة عين الهداية وقد خاطر من استغنى برأيه ، وقال بعض البلغاء : الخطأ مع الاستشهاد أحمد من الصواب بالاستبداد ، وقال بعض الحكماء نصف رأيك مع أخيك فشاوره ليكمل لك

الرأي. وكان يقال: اذا أشكلت عليك الامور فارجع الى رأي العقلاء ولا تأنف من الاسترشاد يشكرك العباد فان تسأل وتسلم خير لك من ان تصيب وتندم وقال بعض الحكماء: مسترشد ضعيف الحيل خير من عاقل مستكمل رأيه. ويقال التردد خير من العجلة واذا اقتصر الملك برأيه عميت عليه المراشد، وقال حكيم من الفرس: النظر في الامور من العزم والعزم من الرأي والرأي سلامة من التفريط وسلامة التفريط داعية الى الظفر، والتدبير والفكر يبحثان عن الفطنة ويكشفان عن الحزم ومشاورة الحكماء ثبات في اليقين وقوة في البصيرة، ففكر قبل ان تعزم واعزم قبل ان تصرم وتدبر قبل ان تهجم وشاور قبل ان تقدم. وكان يقال: ما استنبط الصواب بمثل المشاورة ولا حصنت النعم بمثل المداراة ولا اكتسبت البغضة بمثل الكبر. وقال عبد الملك بن مروان: لان أخطيء وقد استشرت أحب اليّ من ان أصيب وقد اكتفيت برأي وأمضيته بغير مشورة لان المقتصر برأيه يزري به أمران: تصديقه رأياً الواجب عليه تكذيبه وتركه المشورة التي يزداد به بصيرة، ولهذا شعر

اذا الامر أشكل انفاذه ... ولم تر منه سبيلا فسيحا
فشاور عليه ولا تخفه ... أخاك اللبيب الاديب الفصيحا
فربما أفرج الناصحو ... ن وابدوا من الرأي رأياً صحيحا

وقال محمود الوراق

ان اللبيب اذا تعرف أمره ... فتق الامور مناظراً ومشاورا
وأخو الجهالة يستبد برأيه ... فتراه يعتسف الامور مخاطرا

وقال آخر

شاور صديقك في الخفي المشكل ... واقبل نصيحة صاحب متفضل
فالله قد أوصى بذاك نبيه ... في قول شاورهم به وتوكل

الباب التاسع

في بيان أوصاف أهل المشورة وحكايات لائقة

اعلم اختلف الناس في أهل الشورى، هل الاولى ان يجمعهم الملك على الرأي أو ينفرد بكل واحد منهم في المشورة، فذهبت العرب والفرس وملوك الهند الى ان الاولى اجتماعهم في تدبير الرأي واصالة الفكر ليذكر كل واحد ماقدحه فكره ويبين نتيجة فكرته، حتى اذا كان هناك ضرر في الامر ذكروه وان توجه عليه نقض نقضوه، وانه لايبقى في الرأي مع اجتماع القرائح خلل الاظهر واشتهر. وذهب الروم وملوك القبط الى ان الاولى انفراد كل واحد بالمشورة ليجيل فكره ويستجدي خاطره للوصول الى صواب الرأي، فان القرائح اذا انفردت استكرها الفكر واستفرغها الجهد واذا اجتمعت كان أول ما بدأ به الرأي متبوعا، وينبغي ان يجتمع في أهل الشورى سبع شروط عليها مدار المشورة وبها يشتمل صواب الرأي. أحدها الفطنة والذكاء لئلا تشتبه عليهم الامور فتلتبس فلا يصح مع اشتباهها عزم ولا يتم في التباسها حزم، والثاني الامانة لئلا يخونوا فيما ائتمنوا عليه أو يغشوا فيما استنصحوا فيه، الثالث الصدق صدق اللهجة بخبرهم ليثق الملك فيما ينهون اليه ويعمل برأيهم فيما أشاروا به عليه، الرابع ان يسلموا فيما بينهم من التحاسد والتنافس فان ذلك يمنعهم من الكشف عن صواب الرأي، الخامس ان يسلموا فيما بينهم وبين الناس من العداوة والشحناء فان العداوة تستدعي التناصف وتحجب عن صواب الرأي، السادس أن لا يكونوا من أهل الاهواء فيخرجهم الهوي عن الحق الى الباطل فان الهوي خادع الالباب وصارف عن الصواب الرأي، السابع ان يكونوا من

كبراء الدولة ومشائخ الاعوان ، لان المشائخ قد حنكتهم التجارب وعركتهم النوائب وقد شاهدوا من اختلاف الدول ما أوضح لعقولهم صواب الرأي . وقد كانت العرب تقول: المشائخ أشجار الوقار ومنابع الاخبار لا يطيش لهم سهم ولا يسقط لهم وهم. وقد كان يقال: عليك بآراء المشائخ فانهم ان فقدوا ذكاء الطبع فقد مرّت على عيونهم وجوه العبر وتصدت لاسماعهم آثار الغير . وحكي ان المأمون قال لاولاده : يا بنيّ ارجعوا فيما اشتبه عليكم الى رأي أهل الحزم من أعوانكم المجربين المشائخ المشفقين فانهم يرون لكم ما لا ترون ويكشفون لكم أغطية ما لا تعلمون فقد صحبوا لكم الدهور ومارسوا لكم الامور وعرفوا حوادث الازمنة وأعراضها واقبالها وادبارها فروضوا أنفسكم لهم وتجرعوا مرّ زبهم فقد قيل من جرعك مراً لتبرأ شفق عليك ممن جرعك حلواً لتسقم . وينبغي ان لا يدخل الملك في مشورة بخيلا ولا جباناً ولا حريصاً ولا معجباً ولا كذاباً لان البخيل يقصر بعقلك والجبان يخوفك ما لا تخاف والحريص يعدك ما لا يرجى فقد كان يقال. البخل والجبن والحرص طبيعة واحدة يجمعها سوء الظن . وقال عبد الملك بن مروان لبعض عماله لا تستعن في أمر دهمك كذاباً ولا معجباً فان الكذاب يقرب لك البعيد ويبعد عنك القريب وأما المعجب فليس له رأي صحيح ولا رواية تسلم . وينبغي للملك اذا أتى كل أحد بما عنده من الرأي ان يتصفح أقوالهم ويكشف عن أصولها وأسبابها ويبحث عن نتائجها وعواقبها مع مشاركتهم جميعاً في الارتياء والاجتهاد وليتوقف في ذلك وليحذر مبادرة العمل بالرأي قبل امعان النظر فيه ، فقد قيل أضعف الرأي ما سنح للبديهية ابتداء وأفضله ما تكررت الفكرة بعده وأحكمت الروية عقده. وكان يقال: كل رأي لم تتمخض به الفكرة ليلة كاملة فهو مولود لغير تمام . قال عبد الله بن وهب : الرأي ابن ثلاث فان عيوبه تكشف لكم عن محضه

وقال ابن هبيرة وهو يؤدب ولده: لا تكونن أول مشير واياك والرأي الفطير، ولهذا شعر لبعض أهل الفضل

وإذا الخطوب عليك يوماً أشكلت فاعمد لرأي أخ حكيم مرشد
فاذا استشرت فكن لنفسك رائدا متوخيا حد الرشاد فتهتدي

قال فاذا تكرر له الرأي الصحيح بعد الفكرة والروية شرع في امضائه والعمل به وينتهز فيه الفرصة، وليحذر مخالفة النصحاء والاستهانة بنصائحهم فقد قيل من عصى ناصحا فقد استعدى عدوا. وكان يقال: يستدل على ادبار أمر الملك بخمسة أشياء، أحدها ان يستكفي الاحداث الذين لا خبرة لهم بموارد الامور ومصادرها، الثاني ان يقصد أهل مودته بالاذى، الثالث أن ينقص خراجه عن مؤنة ملكه، الرابع ان يكون بتقريبه وابعاده انما هو للهوى لا للرأي، الخامس استهانته بنصائح العقلاء وآراء ذوي الحفاظ، قال كسرى أنو شروان: حزم الرأي مشورة أهل العلم. وقال أهل الفضل

اذا ما الامور عليك التوت فشاور لبيبا ولا تعصه
وان كنت في حاجة مرسلا فارسل حكيما ولا توصه

وقال أبو الفتح البستي

فللتدابير فرسان اذا ركضوا فيها أبروا كما للحرب فرسان
فلا تكن عجلا في الامر تطلبه فليس يحمد قبل النضج بحران

وسنختم هذا الباب بثلاث حكايات موضحة لما شرحناه

الحكاية الاولى - قيل ان كسرى أنو شروان وصفت له أرض من التخوم الهندية تقارب أقصى بلاده بحسن المنظر وطيب الهواء والماء وكثرة العمائر وحصانة المعاقل ووصف له أهل تلك الارض بعظم الجسوم وبلادة الفهوم وشجاعة النفوس وقوة

الابدان والصبر على ملازمة الطاعة لملكهم ولين القياد ، فشرهت نفس كسرى الى تملك تلك الارض فسأل عن ملكها فأخبروه انه عظيم المنظر وانه شاب منقاد الى شهوته مقبل على لذاته غير ان رعيته قد أشربت قلوبها وده وانصرفت آمالها الى ماعنده ، قال فجمع كسرى وزراءه وأعلمهم أن نفسه شائقة الى تملك تلك الارض وعرفهم صفات مالكها وهو ان لاركن له غير اقبال رعيته الى طاعته ومحبته ، فاجمع رأيهم على ان ينتدب لاستفساد رعية ذلك الملك رجالا يحسنون نصب الدعوات وقلب السبل . قال فاحضر رجالا من دهاة العرب وفتاكهم وأمدهم بالاموال ونصب لهم مثالا يعملون عليه فنفذوا لما أمرهم وتفرقوا في تلك المملكة وأعمل كل منهم قوته فيما انتدب له وأحكموا أمرهم في عامين وبثوا الدعوة في تلك المدينة وغيرها من قراها ورساتيقها ومعاقلها وثغورها واستمالوا قلوب الرعية الى كسرى فاحضر والمرزبان الذي بلا تلك الارض وأمره بالتجهيز اليها فلما أخذ ذلك المرزبان في اعداد الجند وكان عسكره خمسين ألف راس سوى اتباعها فكتب الى الملك عيونه يخبرونه بخروج المرزبان اليه ثم ظهر النفاق ببلاده وهمس الناس فيه فانتبه من غفلته وبحث على الامر فوقف على حقيقته وكان أمر مملكته يدور على خمس رجال أربعة منهم هم وزراؤه وجلساؤه والخامس رئيس الزمارمة الذين يأخذون عنه الدين وكان حكيما عالما ، قال فجمعهم الملك وأطلعهم على ما انتهى اليه من فساد الرعية وتجهز جيوش أنوشروان الى جهتهم وأمرهم في نظر ذلك وامعان الفكر فيه فجلسوا الى ادارة الرأي ، فقال أحدهم من الوزراء الاربعة الرأي ان يستصلح الملك برعيته ويملأ قلوبها رغبات ويحسن آمالها فان العدو اذا علم كان ذلك حائلا له عن الاقدام وان أقدم لقيناه كنا بكلمة مجتمعة وقلوب سليمة فقال له رئيس الزمارمة : هذا لو كان فساد الرعية أوجبه جور وعسف فيزال

حكم الفساد بازاحة علته، وأما فساد هؤلاء فانما أورده عليهم الجهل بمواقع الصواب والنظر لترادف النعم، وقد قيل أربعة اذا فسدهم البطر لم تزدهم التكرمة الا فسادا الولد والزوجة والخادم والرعية، فان هذه الاربعة اذا هاجت لم تزدها المداراة والرفق الا طغيانا وهيجانا: قال الملك صدق الحكيم، قال الوزير الثاني الرأي ان تضرب بمن صلح من الرعية من فسد فيها حتى ترجع راغمة منقادة ثم نلقى عدونا بمن لانخاف دغله، فقال رئيس الزمارمة هذا أنفع لعدوك من جيشه وأدعى الى طاعته من دعارته لانا نعلم ان الرعية لاتخلو من عاقل محروم لم يمنعه من سل سيفه الا الخوف واذا فعل الملك ما أشرت به فقد اباحه سل سيفه واذا سل سيفه لم يسله لنا بل انما يسله علينا و يتبعه الجمهور لما قد طبعوا عليه من حسد الملوك والتعصب للضعفاء، وقد قيل اربعة من استقبلها بالعنف والردع في أربعة أحوال هلك بها وهي الملك في حال غضبه والسبك في حال هجومه والفيل في حال غلمته والرعية في حال هيجانها — ومعنى السبك الجدرى في حال انبعاثه الى سطح الجسد بالاطلية الرادعة — فقال الملك صدق الحكيم، قال الوزير الثالث الرأي أن يطلب الملك تعيين من فسدت طاعته بالامناء من الجواسيس فاذا تعينوا عوملوا بما تقتضيه أحوالهم من قلة أو كثرة، فقال رئيس الزمارمة ان البحث الآن عن هذا خطر لانه لابد أن يفطن له واذا فطن له خاف المريب فحذر، ثم لايخلو أمره بعد ذلك من حالين اما يتحرك الى جهة عدونا فيمتد بالنصايح والدلالة على العورات ويتكثر علينا باشكاله من الرعية فينصرونه علينا وان لم يكونوا على مثل رأيه لان من الرعية من احقده الحرمان ومن أحقده التاديب وجمهور الرعية يتعصبون على الاجناد لانهم لم يسلموا منهم أذى واستطالة، فان شمخوا أفسدوا المملكة وان قصدوا المسيء بالعقوبة المشاكلة له ولو كانوا أعداء له كان

الكلبان اذا تهارشا فرأيا ذئباً فانهما يتركان تهارشهما ويجتمعان على الذئب وان كان مثلهما في الخلقة لكونهما يعاديانه فيصطلحان على التعاون عليه ، وكذلك العامي لاينظر الى الملك من حيث تحققه في الخلق الانساني بل ينظر اليه من حيث نفوذه وأنفته وعلو همته وجرأته وشجاعته وكثرة ماله فينافره ويألف الى العامي الذي هو يشاكله في جهله وطبعه وغير ذلك من أخلاقه ، ولا تخلو الرعية من ناسك أحمق يظن انه يغضب للدين فيحمله حمقه وجهله على الخروج من واجب الطاعة فيكون امره في الرعية أنفذ من أمر الملك في الجند .وقيل ثلاثة ان كاشفتهم بامتحان ماعندهم في ثلاثه أحوال خسرتهم، أحدهم المؤدب اذا امتحنت ماعنده من العلم في حال تأدبك. الثاني صديقك اذا امتحنت ماعنده من البذل في حال فاقتك، الثالث زوجتك اذا امتحنت ما عندها من المحبة في حال كهولتك ،وامتحان الرعية في هذه الحالة أشد شيئاً مما ذكرناه . وقد قال الحكماء: للدولة امراض يخاف عليها ان تموت بها أخطرها أربعة أشياء مايعرض للملك من الكبر وما يعرض له من الغضب فان دولته في هاتين الحالتين تضطرب لخروجه عن حد الاعتدال في السياسة ،والثالث مايعرض له من الحرص فانه اذا حرص عسف وظلم. الرابع هيج الرعية ،فقال الملك صدق الحكيم. فقال الوزير الرابع وكان أوسعهم علماً وافضلهم رأياً انى واصحابي كأصابع الراحة في حاجة بعضها الى بعض وقوام بعضها الى الحاجة ببعض وكل منا يستمد من نور الملك ونور عقله بنظره الينا كاستمداد النجوم الدراري من نور الشمس وأنى غير مايراه أصحابي لامبرقعاً عليهم ولاعائباً الى رأيهم لان القبول والرأي والرد الى الملك لا الى غيره ،فان اذن الملك ذكرته ؟ فقال الملك قل ياايها الوزير الناصح فلك ولاصحابك عندنا الثقة بكم والكرامة لكم لانكم في المناصحة لنا وغيرها كالحواس

الخمس للقلب، فسجدوا له ثم رفعوا رؤوسهم فقال: ان الرعية قليلة النظر في العواقب غير محفظة من المعاطب وقد دب فيها سم الفساد ومكاشفتها الآن خطر والظفر بها وهن في الملك والعدو قوي الطمع لامندوحة لنا عن محاربته، فان رأى الملك ان يصرف همته أولاً الى الاستظهار باتخاذ معقل حريز يأمن فيه على أهله وخواصه وذخائره ومن خلصت نيته من رعيته فانى أعرف في مملكته معقلا شاهقا يطل على أهل الارض اطلال زحل على الكواكب، وهو مع ذلك لذيذ الهواء كثير الماء وقد كان بعض اسلاف الملك اثر فيه آثارا محكمة، فان رأى الملك أن يتم به سعي سلفه ثم يودعه ذخائره ويجعله للاقامة استظهارا ثم يلقى عدوه ان قدم على بلاده فان ظهرت خيانة أنصاره انحاز باوليائه الى ذلك المعقل وألزم نفسه الصبر وانتظار الفرج، قال فسر الملك برأي الوزير ووقع اجماعهم والحكيم أيضاً على ترجيحه، فركب الملك في خاصته وجماعته حتى أتى ذلك المعقل فحشد اليه الاعوان وألزمهم الاسراع في اكمال بنائه وبادر من فوره فنقل اليه خاص بيوت أمواله ونفائس ذخائره وخزائن سلاحه وشحنه بالاقوات والاطعمة وهو مع ذلك يسد الثغور. وان المرزبان اقتحم أطراف بلاده بالجيوش المتوفرة. ونازل الثغور وظهرت دعاة كسرى في من استعمده في تلك الناحية ومن استماله من أهلها فظهر المرزبان على من نازله ثم جعل يطوي بلاد الملك لايمتنع عليه مرام حتى وافته جنوده فدافعته بعض المدافعة فانهزم من فسدت نيته وانهزم المناصحون الى تلك المعقل واستوى المرزبان على تلك الارض. وانحاز الملك واتباعه المناصحون الى ذلك المعقل فسار خلفه المرزبان حتى اشرف على معقله فرآه مداعماً ومعقلا مانعاً فلم يمكنه النزول بساحته فرجع من فوره الى البلاد فولى فيها الولاة والعمال واستقامت المملكة الى المرزبان

ثم ان الفرس جعلوا يعاملون اهل الهند بالفتوة والفظاظة ويعبثون بهم ويسخرون منهم، فبدت الشحناء في النفوس ورأى أهل الهند خراج بلادهم يحمل ويصرف الى غيرهم وقد دخلوا تحت حكم الاعاجم، وداخلتهم الغيرة والحمية فعرفوا فضل ما كانوا فيه ومشقة ما صاروا اليه فتوقف المرزبان عن ردعهم لئلا يوحشهم فكان أمرهم الى زيادة، وأما ملكهم فان وزراءه أشاروا عليه بالصبر وكف الاذى وبسط العدل والاحسان وبذل المال والصفح عن الجرم وتألف المستوحشين فكانت سمعته تزداد حسناً والنفوس اليه ميلا والألسنة اليه شكرا والمرزبان بعكس ذلك . واتفق ان غلاماً من عمال المرزبان على بعض الثغور ساء السيرة فقام اليه ناسك من نساك الهند يعظه فغضب عليه وأمر بقتله فثار أهل البلد على العامل فقتلوه فبلغ المرزبان الخبر فجاء بجنوده فانحاز أهل تلك الناحية الى حصن ملكهم ثم ثارت الهنود في البلاد على ولاتهم من العجم فقتلوهم وخرج الملك من حصنه فجمع اليه أهل البلاد وسار المرزبان راجعاً الى بلاده لما قامت عليه الرعية وخرج من تلك المملكة وعاد الملك الى دار مملكته فجرى على سنن العدل قامعاً للشهوات باذلا مجهوده مستعملا ما أفادته التجارب من الادب حتى بلغ أجله

الحكاية الثانية — قيل لما عزم الامين على انتزاع العهد بالخلافة من أخيه المأمون وكان المأمون أميرا بخراسان وكتب اليه الامين يستدعيه ويذكر حاجته اليه وانه يريده لامر مهم تضيق عنه الكتب، وان جواسيس المأمون وعيونه ببغداد كتبوا اليه يعرفونه ان أخاه الامين يريد تحويل الخلافة عنه الى ولده موسى الناطق، فاطلع المأمون خاصته على الخبر واستشارهم في أمره، فاشاروا عليه ان يثبت مكانه وينتظر الفرج ويكتب الى

أخيه مكتوبا يعتذر له ويتعلل باعلال، ففعل ذلك فعلم الامين انه قد فطن لما يراد به وآيس من نتاج مكيدته، فحينئذ دعا الناس الى خلع المأمون من الخلافة ثم التفت الى علي بن موسى بن هامان وشاوره في أمر خراسان بعد ذلك وان يصطنع الى أهلها بجلائل الصنائع ويغمرهم بالاحسان والعدل، فضمن له ما يريد منها فجهزه الأمين بأحسن جهاز وولاه خراسان وبعد ذلك جهز معه جمهور جنوده فخرج علي بن موسى بالجنود طالباً خراسان، فبلغ ذلك الى المأمون فاضطرب منه وعلم انه يعجز عن مقاومة علي بن عيسى لميل أهل خراسان اليه ومحبتهم له فركب الى متنزه له يشاور وزراءه في تدبير أمره فعارضه في الطريق شيخ مجوسي قد انجدب من هرمه وكبره فناداه بالفارسية مستغيثا به من مظلمة نالته، فلما نظر المأمون الى هرمه وكبر سنه رق له وأمر ان يحمل على دابة الى الموضع الذي قصده ويدخل عليه بغير استئذان. ولما استقر المأمون ووزراؤه في ذلك الموضع أدخل عليه ذلك المجوسي فأمره بالجلوس في حاشية المجلس، ثم أقبل على خاصته وأخبرهم بما انتهى اليه من أمر علي بن موسى وأمرهم بادارة الفكر في الرأي في ذلك وهو يظن ان ذلك الشيخ لا يحسن العربية، فقال أحد الوزراء الرأي اصطناع اجناد من العوام الذين لا يعرفون علي بن موسى فتلقاه بهم قبل دخوله خراسان، فقال الوزير الثاني الرأي ان تبادر بالارسال الى أخيك معتذرا ومنقادا لما أراده منك اليوم ومنتظرا نصر الله تعالى في غد فانك مكره على الخروج من عهدة الخلافة اكراهاً لم يخف على أحد من الناس فهو حق لك متى أمكنك طلبته وكنت فيه على حجة ظاهرة، وقال الوزير الثالث الرأي ان تجتمع بمن تثق من موالاته من ذي النجدة والشجاعة فتزيح عللهم وتقصد بهم بعض هذه البلاد الكافرة من الممالك المجاورة لنا ثم تصدقهم القتال فلعل الله تعالى

ان يظفرنا بهم فنصير بعد الى مملكة منيعة ويفزع اليناس كان على امتثال أمرنا فنمتنع ونجاهد حتى يقضي الله أمره ، وقال الوزير الرابع الرأي ان تستغيث بملك الترك مستجيرا به ومستعينا على أخيك الغادر فهذا أمر لم تزل الملوك تفعله اذا دهمها مالا قبل لها به . فلما سمع المأمون كلامهم جميعاً قال لهم قوموا عني حتى أنظر فيماذكره كل واحد منكم ، ثم التفت الى الشيخ فناداه ورفق به وسأله عن حاجته ، فقال له كنت جئت لحاجة فعرض لي ماهو أوكد منها : فقال له المأمون تكلم مافي نفسك ، فقال أيها الملك لاتصدنك حقارة قدري ؛ فان الدرة النفيسة لايزرى بها حقارة الغواص ، فقال له المأمون تكلم أيها الشيخ بما عندك ؟ قال اني سمعت ما أشار به القوم عليك وكل منهم مجتهد في الاصابة واني لست أرضى شيئاً مما قالوه ، واني وجدت في الحكم الذي أخذها أبي عن آبائهم : انه ينبغي للعاقل اذا دهمه مالا قبل له به ان يلزم نفسه التسليم لاحكام الحكيم واهب العقل وقاسم الحظوظ ولا يترك مع ذلك الاندفاع بحسب طاقته فانه ان لم يحصل على الظفر أمن الغدر ، فقال له المأمون : ان هذا الرجل الذي قصدنا ليملك منا البلاد لا يمكننا مقاومته ، قال الشيخ ينبغي ان تمحو هذا من نفسك ولا تصطفي من ينطق به ، فانه ما كثر من كثره البغي ولاقوى من قواه الظلم وان اخاك ظالم لك باغ عليك فهو هالك لامحالة وأنت منصور عليه ظافر به وسأحدثك حديثاً ان حذوت مثاله نلت مناله ، فقال المأمون هات ياشيخ ، قال ان الخنشوار ملك الهياطلة لما أسر فيروز بن يزدجرد ملك الفرس وأراد اطلاقه أخذ عليه العهد ان لايغزو بلاده ولا يقصده بمكروه ولا يتعرض اليه بسوء ، ووضع في اقصى ارض الهياطلة صخرة وتحالفا على ان لايتجاوز أحدهما تلك الصخرة بجيش ولا بمكروه لصاحبه ، ثم اطلقه بعدما استوثق منه الخنشوار

بالعهود، فلما وصل فيروز الى دار ملكه دخلته الحمية والانفة وعزم على غزو الخنشوار وعلى أخذ بلاده واستيفاء ثاره، فجمع وزراءه وشاورهم في ذلك فحذروه النكث وخوفوه عاقبة البغي والغدر، فما ردعه ذلك عما عزم عليه فذكروه ايمانه التي حلفها للخنشوار والصخرة التي بين المملكتين، فقال اني عاهدته ان لا اتجاوزه بجيوشي واذا انا أبلغتها حملتها بين يدي جيوشي ولا يتجاوزها أحد منهم، واذ فعلت ذلك فلا اكون نا كثا ولا غادرا فلما سمعوا ذلك منه علموا ان الهوى قد وقف به على حد الرضى بهذا القول والتأويل، فامسكوا عنه ثم ان فيروز جمع مرازبته وهم اربعة مع كل مرزبان منهم خمسون الف فارس وامرهم بالتجهيز لحرب الهياطلة، فلما فعلوا ذلك سار بهم فيروز وظن ان جيوش جنده لا غالب لها لكثرتها ولشدة شوكتها، قال فعارضه موبذان في طريقه فقال: أيها الملك لا تفعل فان رب العزة وخالق العالم يمهل الملوك على الجور ولا يمهلهم اذا أخذوا في هدم أركان الدين، وان العهود من أركان الدين فلا تتعرض له بسوء فتهلك، فلم يلتفت الى كلامه وسار راكبا هواه في معصيته مخالفا نصحاءه حتى انتهى الى الصخرة التي جعلها حاجزا بين أرضه وأرض الخنشوار فحملها على فيل وسيرها بين يدي عسكره، وان الخنشوار لما بلغه مسير فيروز اليه حمل نفسه على التثبت وفوض أمره الى الله عز وجل وسأله سبحانه وتعالى ان ينتقم ممن خان عهوده ومواثيقه التي لم يرع حقها فيروز اليه ولا خاف عاقبة نكثها وأخذ مع ذلك في الحزم في سد الثغور وجمع جنده، ثم خرج فيروز بعد ما توسط أرضه وجمع جنده واتباعه فحمل هو وجماعته وصدقوا في حملتهم فانكشف فيروز منهزماً وترك ما كان بيده فقتل الخنشوار رجاله ونهب أمواله وأمعن في طلب فيروز فظفر به وقتله وأسر أهل بيته وحماة أصحابه واستولى على بلاده، كل ذلك

بسبب الغدر ونقض الميثاق، وكذلك يكون أخوك بسبب نقضه لميثاق أبيك وغدرك فانك الظافر به لامحالة. فلما سمع المأمون كلام الشيخ تهلل وجهه وطابت نفسه وقال قد سمعت مقالتك فصادفت منا قبولا لها وشكرا عليها وسرورا بها ثم حياه وأكرمه وعمل برأيه فانجح الله عمله وبلغه من الخلافة أمله

الحكاية الثالثة — قيل ان عبد الملك بن مروان لما فرغ لقتال عبدالله بن الزبير وخرج بالجيش متوجها الى مكة شرفها الله تعالى وعظمها وكان قد استصحب معه عمرو بن سعيد بن العاص وكان عمرو قد انطوى على دغل نية وفساد طوية وطمع في نيل الخلافة فلما كان ببعض الطريق تمارض عمرو بن سعيد وسأل عبدالملك بن مروان في العود الى دمشق فاذن له في العود، فلما دخل دمشق صعد المنبر فخطب الناس خطبة نال فيها من عبد الملك ودعا الناس الى نزعه من الخلافة فأجابوه الى ذلك وبايعوه واستولى على دمشق وحرس صورها وحمى ثغورها وبذل الرغائب، ثم اتصل الخبر الى النعمان بن بشير أمير حمص فنزع بيده من الطاعة أيضاً وكذلك صنع ظفر بن الحارث أمير قنسرين وكذلك نايل بن قيس ملك فلسطين ثم تسوف أهل الثغور للخلاف فبلغ ذلك عبد الملك بن مروان فخرج على وزرائه واهل خاصته واطلعهم على مابلغه وقال: هذه دمشق دار ملكنا قد استولى عليها عمرو بن سعيد وهذا عبدالله بن الزبير قد استولى على الحجاز والعراق واليمن وهذا النعمان بن بشير أمير حمص وظفر اميرقنسرين ونايل ابن قيس امير فلسطين قد نزعوا ايديهم من الطاعة وبايع الناس لابن سعيد وقد تسوف اهل الثغور للخلاف فما عندكم من الرأي؛ قال فلما سمعوا مقالته ذهلت عقولهم ونكسوا رؤوسهم، فقال لهم مالكم لاتنطقون فهذا وقت الحاجة اليكم؛ هل ترون الرجوع الى دمشق اصوب ام التوجه الى ماخرجنا اليه احزم ام اللحاق

بفلسطين ؟ ام النزول على حمص واستنزال النعمان منها ام التوجه الى مصر في هذا الوقت اغنم كيف ترون الرأي ؟قال افضلهم لا رأي عندنا في هذا ، والله لقد وددت ان اكون طيرا على عود من اشجار تهامة حتى تنقضي هذه الفتنة ، قال فلما سمع عبد الملك كلامه علم انه لا غنى له عندهم ، فقام وامرهم بلزوم مواضعهم وركب من فوره منفرداً وهو يقول

تكاثرت الظباء على خداش   فما يدري خداش لمن يصيد

وامر جماعة من اصحابه ان يركبوا متباعدين منه بحيث يرون اشارته اذا اشار اليهم ، وسار ثم تبعه القوم فلم يزل سائراً منفردا حتى اتى الى شيخ كبير السن ضعيف الجسم يجتني العفص من الاشجار ، فسلم عليه عبد الملك وقال له : ألك علم بمنزل هذا العسكر ؟فقال بلغني انهم نزلوا بأرض كذا وكذا ، قال فهل بلغك شيء مما يقول الناس في أمر الخليفة ؟ قال فما سؤالك عن ذلك ؟ قال اني أريد اللحاق به والدخول عليه وقد سمعت ان عمرو بن سعيد خالفه الى دمشق واستولى عليها فقال الشيخ اني اراك اديباً واحس بك حسيباً فهل تحب أن انصح لك ؟ قال نعم أيها الشيخ ، قال ينبغي لك أن تصرف نفسك عن هذا الامر الذي ترغب اليه فان الامير الذي أنت قاصده قد انحلت عرى ملكه وقد نابذه اتباعه واضطرب في اموره وان السلطان في حال اضطراب اموره كالبحر في حال هياجه لا ينبغي ان يقرب احد منه . فقال له عبد الملك ان الحياة لم تبلغ بي في مغالبة نفسي بك ما ترغب اليه واني اجدها ترغب الى صحبة هذا الامير رغبة شديدة ولا بد لي من ذلك ، فهل لك أن تخبرني بما تراه من الرأي في تدبيره بهذه الخطوب التي دهمته حتى أعرض ذلك الرأي عليه واتقدم به عنده فلعله يكون سبباً لقربي منه ؟فقال الشيخ ان حكمة الله تعالى وعزته لتقضيان بحجب العقول

والاراء عن النفوذ في بعض النوازل، واني لاظن ان هذه النازلة التي نزلت بالخليفة من النوازل التي لا ينفذ فيها الرأي، واني اكره ان ارد مسألتك بالخيبة فها انا اقول لك فيما سألتني عنه قولا اقضي به حقك وان كان الخطب عظيما قال عبد الملك اني لارجو الله ان يرشدك ويرشدني بك، قال الشيخ ان عبد الملك خرج لمحاربة عبد الله بن الزبير فظهر من مشيئة الله تعالى ماصده عن ذلك واني مشير عليك ان تتفقد حال عبد الملك فان رأيته قصد عبد الله بن الزبير فاعلم انه مخذول لا محالة لانه لج في طلب مامنع منه، وان رأيته رجع من حيث جاء فارج له السلامة والنصر لانه مستقبل. فقال له عبد الملك ايها الشيخ اوضح لي ماذكرت لينطبع في فهمي صورته. فقال الشيخ ان عبد الملك اذا قصد عبد الله بن الزبير كان في صورة ظالم لان ابن الزبير لم يعصه قط ولا وثب على مملكته فاما اذا قصد عمرو بن سعيد بدمشق فانه يكون في صورة مظلوم لان عمروا رجل من رعيته طلب الخلافة لنفسه واغتصب دار ملك لم تكن له ولا لابيه بل كانت لعبد الملك وابيه، ثم ان عمرو بن سعيد ظالم له من وجه آخر وذلك انه بن عم عبد الملك وعز عبد الملك عز له وقد كان محسنا اليه، فلما خرج عبد الملك لتشييد عز عمرو منه أوفر حظ فيه غدر به ونكس ونكث عهده فخذله ثم سعى في ضرره واشمت به عدوه فرجوع عبد الملك الى دمشق فهو اشبه بالتفويض والتسليم لامر الله تعالى ولا شك ان يظفر بالتفويض والتسليم بمن خانه وبغى عليه ونقض عهده فان الباغي مصروع واذا ظفر به استقال النعمان وظفر ومن حواليهما من الثغور ورجعوا الى الطاعة عند معاينة الظفر بعمرو بن سعيد. قال فسر عبد الملك بمقابلة الشيخ وعزم على اتباع رأيه، وقال جزاك الله خيرا ياشيخ قد حسنت فيما اشرت فاخبرني باسمك واين منزلك ؟ فقال الشيخ وماتريد من

ذلك ؟ قال لا اقضي حقك فارفع اليَّ حوائجك فاني عبد الملك . فقال الشيخ وانا أيضاً عبد الملك فهلم بنا نرفع حوائجنا جميعاً الى من انا وانت له عبدان . ثم تركه الشيخ وانصرف قال فذهب بدالملك وعمل برأي الشيخ فانجح وبالله سبحانه وتعالى التوفيق

الباب العاشر

في معرفة اصول السياسة والتدبير

اعلم ان الملك العظيم يحسن به أن يكون في تصاريف تدبيره وسياسة اموره متشبها بطبايع ثمانية وهي : الغيث والشمس والقمر والريح والنار والماء والارض والموت . اما الغيث فانه ينزل متواتراً في أربعة أشهر من السنة فيساوي به بين كل محلة مشرفة وموضع منخفض ويغمر كلا من مائه بقدر موضعه في ارتفاعه وهبوطه فتأخذ تلك البقاع منه ماتغذى نباتها في الثمانية أشهر الباقية من السنة . وكذلك ينبغي للملك أن يعطي جنده واعوانه في أربعة أشهر للثمانية أشهر الباقية فيجعل رفيعهم ووضيعهم في الحق الذي يستوجبه في القيامة بينهم على حسب مايراه من المصلحه على قدر مراتبهم كما يسوى الغيث بين بقاع الارض واما الشمس فانها تستقصي بحرها وحدة وقعها في الثمانية الاشهر الباقية من السنة فكذلك الملك باستيفاء جميع حقوقه من رعيته وماشيتهم . وغيرذلك من الحقوق الواجبة له عليهم كما تستقصي الشمس نداوة الغيث من الارض . واما القمر فانه اذا طلع لتمامه انتشر نوره على الخلق وآنس الناس لضوئه واشراقه واستوى في ذلك القريب والبعيد . وكذلك ينبغي للملك أن يكون في بهجته ورتبته واشراقه في مجلسه وايناس الرعية وعدله مثل القمر في طلوعه واشراقه فلا يختص شريفاً دون وضيع بعدله وايناسه ولا يحجب عنهم فتظلم أحوالهم ويزول أنسهم ويقل

انتعاشهم كما اذا احتجب القمر في الليالي السود . واما الريح فانها بلطفها محيطة بالعالم السفلي . وكذلك ينبغي للملك أن يكون بلطفه وحذق جواسيسه وعيونه محيطا بمعرفة احوال رعيته وقواده وولاة ثغوره واعماله وحاشيته وجنده عارفاً بخبر اعدائه ونظرائه عالماً بما يعملون وما يأتمرون بواسطة العيون الثقاة . واما النار فيكون مثلها في الحدة على أهل الزعارة والفساد واصحاب الشر لا يبقي احداً منهم ولا يذر ولا يترك لهم عيناً ولا أثراً . واما الماء فانه مع لينه وسلاسته يقتلع الاشجار العظيمة ويقهر من قاومه بالسباحة، وكذلك ينبغي للملك ان يكون ليناً لمن لاينه شديدا على من خالفه ينصب لاعدائه الغوائل مع لينه ورقته حتى يقلعهم كما يفعل الماء . واما الارض فانها توصف بكتمان السر واحتمال الاذى والصبر على المكاره ، وكذلك ينبغي للملك أن يكون مثلها في جميع ذلك وأما الموت فانه يأتي بغتة ويقاص أهل اللذات على ماهم عليه ولا يقبل ممن نزل به رشوة ، وكذلك ينبغي للملك أن يهاجم عدوه من حيث لايشعر به ويفاجيء أهل العداوة والزعارات في حال غفلاتهم كما يفعل الموت . واعلم ان المملكة مثلها مثل البستان فينبغي ان يسوسها الملك في غالب الاحوال كما يسوس صاحب البستان بستانه، فمن ذلك أن ينتخب أهل السكينة من جنده وذوي الشوكة من أعوانه فيجعلهم في أقاصي بلاده واطراف مملكته ليحفظ بذلك الرعية كما يفعل صاحب البستان فانه يخرج الشجر ذوات الشوك وما فضل من العيدان فيحطه على الاشجار المثمرة والزراريع الطيبة ليقيها من أهل الفساد والزعارة ويخرجهم من بينهم أو يصلحهم باقامة الحدود بالحقوق واظهار السياسة ، فانه اذا فعل ذلك صلحت أحوال الرعية وانتعشت وكثر خيرها كما يفعل صاحب البستان فانه ينقي بستانه من الحشيش الذي لا فائدة فيه ويخرج مافيها من الشوك

والنبات الخبيث فينتعش زرعها وتنمو أشجارها ويطيب ثمرها ، ومتى حل خراج الملك أو تعين له حق على رعيته من أموال الثمار والغلال ولم يقبضه في وقته فيكون معرضاً للضياع بآفات الزمان كما يفعل صاحب البستان فانه لا يؤخر اجتناء ما نضج من ثمره وما طلع من ورده لانه ان لم يبادر لالتقاطه سقط على الارض واحاطت به الافات ، وينبغي ان يتعهد ابناء جنده واعوانه الذين ماتوا في خدمته وطاعته ويخرج لهم من بيت ماله رزقاً يقوم بكفايتهم فانهم أرجى للملك عند بلوغهم وأشد نصحاً من غيرهم في خدمته كما يتعهد صاحب البستان خوالف شجره الهالك بالسقي والتربية لما يرجوه من جناءها لاستطابة ثمرها ، ومتى تباغض قائدان من قواده وكانا متجاورين في موضع فينبغي أن يفرق بينهما لان خيرهما لا يرجى ماداما متجاورين في موضع وربما نتج منهما أو من احدهما مالا يمكن الملك معه ائتلافهما كما يفرق صاحب البستان بين الشجرتين اذا تداخلت أغصانهما لعلمه ان خيرهما لا يرجى ماداما كذلك . واعلم ان الرعية ان كانت ثماراً مجتناة ودخائر مقتناة وسيوفاً منضاة فان لها نفاراً كنفار الوحوش وطغياناً كطغيان السيول ومتى قدرت أن تقول قدرت أن تصول وهم ثلاثة أصناف فينبغي للملك أن يسوسهم بثلاث سياسات . صنف من اهل العقل والديانة والفضل يعلمون فضل الملك وطول عنائه ويرثون لشقة اعيائه فسياسة هؤلاء تحصل بالبشر عند لقائهم واستماع احاديثهم وحسن الاصغاء اليهم ، وصنف فيهم خير وشر فسياسة هؤلاء تحصل بالترغيب والترهيب ، وصنف هم السفلة الرعاع اتباع كل داع فسياسة هؤلاء بإخافة غير مقنطة وعقوبة غير مفرطة لا يتحقق ذلك منهم الا من يكون أغلب اوصافه عليه الرحمة للرعية ، لان الملك انما يتميز عن السوقة بفضلين فضيلة ذاته وفضيلة آلائه ، أما فضيلة ذاته فبخمس خصال رحمة

تشدد رعينه ويقظة تحوطهم وصولة تذب عنهم وفطنة يكيد بها الاعداء وحرمة ينتهز بها الفرص اذا أمكنه ، واما فضيلة الآلة فسنة وفور أمواله وكثرة أجناده وحصانة معاقله واتخاذه المباني الوثيقة واعداده الملابس السنية وتحصيله الدخاير النفيسة . ولا ينبغي للملك أن يعتمد على فطنته وقوة حيلته وكثرة ماله وجنده وحصانته ومعاقله فيترك الاستعداد للنوازل ولكل مايجوز وقوعه من الحوادث فيكون مثله كمثل خطيب اعتمد على فصاحة لسانه وقوة بديهته واهمل مراعاة وقع القول وترتيبه ثم صعد المنبر فيوشك أن يستولى عليه العي عند الحاجة، بل ينبغي أن يتقدم في الحيلة قبل نزول الحادث فان الامور اذا نزلت ضاقت عنها الحيل واذا عرف الملك وجه الكيد الذي يكيد به عدوه فينبغي أن يحترس من مثله لانه اذا لم يحترس من مثله كان بمنزلة الرامي الحاسر الذي لاتدبير معه فهو ان أصاب برميته فانه مستهدف لرمية غيره، وكذلك الملك اذا احتال على عدوه بضروب الحيل ثم انه لم يتحفظ من كل ما يظن أن يبلغ منه عدوه كان عمله معونة عليه غير نافع له في العاقبة . وقد كان يقال احترس من تدبيرك على عدوك كاحترسك من تدبيره عليك فرب هالك بما دبر وساقط في البئر الذي حفر وجريح بالسلاح الذي شهر. وينبغي للملك أن يأخذ في سائر اموره بالحزم وصدق العزم ولا يترك الاحتراس والحذر فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال: الحزم سوء الظن، ولايكون ظنه حقيقة بل الحذر والاحتياط . وقيل لبعض الحكماء ما الحزم؟ قال: ان تحذر من كل ما يمكن وقوعه قيل فما العجز؟ قال ان تامن مما يمكن وقوعه، وهنا شعر

لاتترك الحزم في شيء تحاذره فان سلمت فما في الحزم من باس
ترك الفتى الحزم فيما خاف منقصة وأحزم الحزم سوء الظن بالناس

واذا حاول الملك أمراً عرض له فليشمر في طلبه عند امكان الفرصة ولا يتركه عنه لصغره فان وثبة الاسد على الارنب هي التي تقدمه على الفيل ومتى استهان الملك بالامر الذي حقره عاد كبيراً فان القروح التي تظهر في الجسد اذا استهان بها الانسان صارت الى أعظم العلاج وأكبر المداواة ولهذا شعر

ولا تحقرن عدواً رما　　　　كَ وان كان في ساعديه قصر
فان السيوف تحز الرقا　　　　ب وتعجز عما تنال الابر

واذا وقع الملك في أمر من عدوه يخاف فيه على نفسه وسلطانه فينبغي أن يعطى بلسانه كما يرضي عدوه مظهراً للرقة والانقباض وهو مع ذلك مستيقظاً محترساً مستعدا للوثبة عليه ان امكنته الفرصة حتى ينال فيها حاجته ولهذا شعر

واذا عجزت عن العدو فداره　　　　وامزج له ان المزاج وفاق
فالنار بالماء الذي هو ضدها　　　　تعطى النضاج وطبعها الاحراق

فان دهمه ما لا طاقة له به في أمر من امور مملكته واشرف منه على ان يذهب كله ورأى أن يتلطف بالحيلة في أن يرجع اليه بعضه فليفعل ذلك ويكون راجياً لا يستخف به الاسف والانف والتمادي حتى يذهب كله فيكون مغبوناً فان العاقل اذا أشرف له ابنان على الهلكة وطمع في نجاة أحدهما بموت الآخر فان نفسه تسمح بموته لنجاة أخيه ، ولا يداخله الاشفاق عليهما والجذع فيهلكا جميعاً ، واذا عادى الملك رجلا فلا يعادي لاجله كل من شا كله فانه ربما انتفع ببعضهم انتفاعه بأهل مودته فان السيف الذي يقتل بحده هو من جنس الدرع الذي يتحصن به عن مضارة حد السيف ، ولا ينبغي للملك أن يشتد جزعه على مافاته وذهب

عنه ، فان فعل ذلك تعجلت له المساءة بما لا يقدر على ارتجاعه و بدرت له الحسرة على مالا يقدر على استدراكه ، ثم يشغله ذلك عن تدبير مستانف أمره وصلاح باقي شأنه وربما أفضى به الحال الى الهلاك فان شدة الجزع تهلكه ، فقد حكي ان ملكا من ملوك الفرس جلس على سريره في يوم نيروز وجعل الناس يهدون له أصناف الهدايا فدخل عليه الموبذان ومعه طبق مغطى فاهداه اليه ، فلما كشف عنه رأى فيه فحمتين ، فقال الملك ماهذا ؟ فقال أيها الملك أحدهما باز والاخرى دراجة واني رأيت الباز ارسل على الدراجة فتبعها وهي تطير بين يديه الى أن أتيا اجمة فيها نار فحمل الجزع الدراجة على اقتحامها وحمل البازالحرص على افتراسها فاحترقا جميعاً فرأيت ان خير الهدايا هذه الموعظة فاهديتها لك ، فاجتنب أيها الملك الافراط في الجزع والحرص فانهما سائقان الى الهلكة. فقال الملك ما أهديت الي هدية أنفع من هذه الهدية. ومتى صنع الملك بخطأ الرأي شيئاً فأصاب فيه فلا يعاوده ثانياً طمعاً فيما ناله أولا فان من وطيء حية مرة فنجا منها فليحذر أن يتعرض لها بالوطء مرة اخرى . واعلم ان كبار اعوان الملك ومشايخ دولته الذين صحبوا اسلافه من الملوك هم أقوى دعائم مملكته وأثبت أركان دولته لانهم وان براهم الزمان بحده فقد بقي كرم وجوههم ومحض مودتهم فهم يزدادون في النصح اجتهاداً وفي البؤس صبراً وجلاداً ، ومثلهم كمثل دعائم الساج للبيت فانها كلما مر عليها الزمان ازدادت قوة وصلابة حتى ان الارضة لوحاولت نقب عودها لم ينفذ عملها فيها فيكون البيت بها اقوم واصلب . وينبغي للملك ان لا يصحب من أعوانه كذاباً ولا مطبوعا على شر لان الكذاب اذا حدث كذب واذا حدثه الملك لم يصدقه لما يظن في نفسه ، والمطبوع على الشر غير تارك اطباعه لانها أملك به فيكون الملك معه على خطر ، ولا يطمع الملك في استصلاحها ونقلها عن

طباعها فانهما بمنزلة القرد الذي يطعم الدبس والحلاوة ليسمن ويحسن وجهه فلم يزدد وجهه الا قبحاً، ومتى كان الملك يكل ضبط اموره واقماع عدوه لقوم ليسوا منه على ثقة ولا بحفاظ لامره فهو منهم على أعظم خطر حتى يحملهم ما استطاع على الرأي والادب الذي بمثله تكون الثقة والاستعانة بهم، ولا يغرنه منهم قوته بهم على غيرهم فانما هو في ذلك كراكب الاسد يهابه من ينظر اليه وهو لمركبه أهيب ، ومتى اسرف الملك في توسعة الارزاق على جنده ابطرهم ومتى ضيق عليهم احقدهم فيكون في هاتين الحالتين متعرضاً للهلاك فان الاسباب التي تجر الملكة ثلاثة احدها من جهة الملك وهو ان تغلب شهواته على عقله فلا تطرأ له لذة الا قضاها ولا راحة الا افترصها ، الثاني من جهة الوزراء وهو تحاسدهم المقتضي لتعارض الآراء فلا يسبق احدهم الى حق الا فندوه وعارضوه الثالث من جهة الجند وخواص الاعوان وهو النكول وترك المناصحة في الجهاد وهم صنفان الصنف الاول وسع عليهم الملك الارزاق فابطرهم السرف والتنعم وافتراص اللذات فبخلوا بنفوسهم وخافوا عليها عند لقاء الاعداء فمنعهم ذلك من الاقدام، الصنف الثاني قدر الملك عليهم أرزاقهم فانطووا منه على حقد ونفاق فنصبوا له الغوائل وأسلموه عند النوازل ، وينبغي للملك ان يتعرف أسباب الفتن ونتائجها المفضية الى اختلاف الكلمة والخروج عن الطاعة ليحسم مواردها ويقطع أسبابها ، فقد قيل ان ملكا من ملوك العجم كتب الى حكيم من حكمائهم يقول: ان الحكماء قد أكثروا من أسباب وصف الفتن فاكتب الي بما ينشبها وبما يميتها فكتب اليه يقول : ينشبها ضغائن ويقويها اطماع لم تقمعها هيبة وجراءة عامة يولدها استخفاف بالخاصة ويؤكدها انبساط الالسنة بضمائر القلوب وغفلة أمير ملتذ ويقظة قوي محروم، ويميتها عز السالب وذل المسلوب ودرك البغية وموت

الامل وتمكن الرعب. فكتب اليه ان الذي وصفت كما وصف سواك فأي الامور أدفع لما ذكرت ؛ فكتب اليه الحكيم : أخذ العدة لكل مايخاف وقوعه وايثار الجد على الهزل والعمل بالعدل في الرضى والغضب. وكتب عبد الملك بن مروان الى الحجاج بن يوسف : ان صف لي الفتنة حتى كأني أنظر اليها ؛ فكتب اليه الحجاج : ان الفتنة تلقح بالنجوى وتنتج بالشكوى ويقوم بها الخطباء وفسادها بالسيف ان عثمان بن عفان رضي الله عنه قال يوماً لبعض جلسائه وهو محصور : وددت لو ان رجلا صدوقا أخبرني عن نفسي وعن هؤلاء القوم — يعني الذين يحاصرونه — فقام رجل من الانصار فقال : أنا أخبرك يا أمير المؤمنين انك تطأطأت لهم حتى ركبوك وتغافلت عنهم فسلبوك وما جرأهم على ظلمك الا افراط حلمك . قال صدقت اجلس ، ثم قال هل تعلم ماسبب ثوران الفتنة ؟ قال نعم سألت عن ذلك شيخاً باقعة في العلم فقال ان الفتنة يثيرها أمران أحدهما أثيرة تضغن الخاصة والثاني حلم يجرئ العامة ، قال فهل سألته عما يخمدها ؟ قال نعم ان الذي يخمدها في ابتدائها استقالة العثرة وتعميم الخاصة بالاثرة دون غيرهم فاما اذا استحكمت الفتنة فلا يخمدها الا الصبر ، قال عثمان رضي الله عنه هو ذاك حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين

الباب الحادى عشر

في الجلوس لكشف المظالم

اعلم ان جلوس الملك والفصل بين المتنازعين من أعظم قوانين العدل الذي لايعم السلام الا بمراعاته ولا يتم التناصف الا به ، وقد كانت ملوك الفرس يرون ذلك من قواعد الملك وأول من أفرد للظلامات يوماً معلوما يتصفح فيه قصص

المتظلمين من غير مباشرة لنظر عبد الملك بن مروان ، وكان اذا وقف منها على مشكل رده الى قاضيه ادريس الاودي فينفذ فيه الحكم، وكان ادريس المباشر وعبد الملك الآمر ، ثم زاد ظلم الولاة وجور النواب بعد ذلك فافتقرت الحالة الى المباشرة، فجلس عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فكشف المظالم وهو أول من باشر ذلك بنفسه وجعل يراعي السنن العادلة ورد مظالم بني أمية على أهلها حتى قيل له وهو يشدد عليهم : انا نخاف عليك العواقب من ردها فقال مامن يوم أخافه وأتقيه غير يوم القيامة الا وقيته ، ثم جلس لكشف المظالم من خلف بني العباس المهدي حتى عادت الاملاك الى مستحقيها ، ثم جلس لها من بعده الهادي ثم الرشيد ثم المأمون وآخر من جلس لهـا المهتدي ثم احتجبت الخلفاء لتظاهر الترك وغيرهم عليهم ودفعوا أمر المظالم الى وزرائهم، ولما أفضى ملك الشام الى الملك العادل نور الدين بن الزنكي رحمه الله بنى له داراً في قلعة دمشق سماها دار العدل، فكان يجلس فيها فيتصفح قصص المظلومين ويفصل بين أمر المتنازعين ولديه الفقهاء وأئمة الدين فيرجع اليهم ماأشكل عليه من أمور الشرع وثبت القضايا ويفصل كلما انتهى اليه في ذلك اليوم حتى جعل هذا سنة في جميع مدائن الشام. وحدثني الفقيه أبو طاهر ابراهيم بن الحصين الحموي قال كنت عند الملك العادل محمود بن الزنكي في دار العدل بدمشق وقد عرض عليه قصص خراج أملاك أهل الشام فجعل ينظر فيها فلما انتهى الى ذكر خراج معرة النعمان قال : اني قد عزمت على انتزاع أملاك أهل المعرة من أيديهم فقد رفع اليّ أهل الخبر من الثقاة ان جميع أهل المعرة يتعرضون للشهادة فيشهد أحدهم لصاحبه في دعوى ملك حتى يشهد ذلك معه في دعوى أخرى وان الملك الذي بأيديهم انما حصل لهم بهذه الطريقة ، قال فقلت : أيها الملك ان الله تعالى أوجب عليك

العدل في رعيتك والنظر للكشف والتوقف في الامور اذا رفعت اليك فان أهل المعزة خلق كثير يستحيل تواطؤهم على شهادة الزور ، وانتزاع الاملاك من أربابها بمجرد هذا القول لايجوز ، قال فاطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال : أمسكها عليهم ، ثم اكشف عنها بعد ذلك ؟ والتفت الى كاتبه وقال : اكتب كتاباً الى الوالي في المعزة ليمسك جميع الملك الذي في أيدي أهلها حتى ليستدعي البينة ، فكتب ووضع بين يديه ليضع علامته فيه واذا صبي على شاطئ النهر يغني شعرا

اعدلوا ما دام أمركم نافذا في النفع والضرر

واحفظوا أيام دولتكم انكم منها على خطر

انما الدنيا وزينتها طيب مايبقى من الاثر

فلما سمع الملك ذلك تغير لونه وهملت عيناه بالدموع ثم نظر اليّ وقال — فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ماسلف وأمره الى الله — ثم استدار الى القبلة وقال : اللهم أستغفرك وأتوب اليك مما عزمت عليه الآن ، ثم تناول الكتاب فمزقه وجعل يستغفر الله تعالى جميع ذلك اليوم . وينبغي للملك اذا جلس لكشف المظالم ان يستكمل مجلسه بحضور خمسة أصناف من الناس لاغنى عن حضورهم ولا ينتظم نظر أموره الا بهم ، الصنف الاول الفقهاء والعلماء أصحاب الفتوى ليرجع فيما أشكل ويسألهم عما اشتبه فيه ، الصنف الثاني القضاة والحكام لاستعلام ما يثبت من الحقوق وما جرى في مجالسهم بين الخصوم وتنفيذ القضايا والاحكام الصنف الثالث العدول ومشايخ البلد ليثبت ما يجري بين الخصوم وما يوجبه الشرع المطهر لهم من الحقوق ، الصنف الخامس الكبار من حماة دولته وأعوانه وخاصته لتظهر بهم الرهبة وتحصل بهم الهيبة فيخاف المعتدي ويتظاهر المظلوم فينتصر

فاذا تشكل مجلس نظره بما ذكرناه شرع حينئذ في تصفح القصص وتنفيذ الامور والنظر في أمور الرعية والولاة والعمال على ماقدمناه

الباب الثاني عشر

في أدب صحبة الملوك

اذا أخلصك الامير لخاصته وجعلك من أهل مجالسته فالزم الصمت واستعمل الوقار ولا تحدثه بادئًا ولا تعد حديثك عليه ثانيا ولا تفصل حديثًا بحديث ولا تعارض أحدا في حديثه واخفض من صوتك واختصر من لفظك، ولا تعتب أحدا عنده وان كثرت عيوبه وعظمت ذنوبه ، واذا جالست الملك فغض بصرك وضم شفتيك ولا تقولن في غيبته مالا تقوله في حضوره ولا تأمن ان تكون عليك عيون ترفع اليه أخبارك وتورد عليه أسرارك. وأنشدني بعضهم في المعنى يقول شعرا

اذا صحبت الملوك فالبس ... من التوقي أعز ملبس
وادخل اذا مادخلت أعمى ... واخرج اذاماخرجت أخرس

واذا كان لك الى الملك حاجة فلا ترفعها اليه مالم يكن وجهه بسيطاوقلبه نشيطاء وليكن على مقدار حقك لاعلى مقدار عزمك،واذا طلبتها منه فقصر المقال وتوق الملال، ولا يحملك فرط ميله اليك على التبسط عليه في السؤال فتنحط رتبتك وتذهب حرمتك ،واذا أقبل الملك عليك فأقبل عليه بوجهك واصغ اليه بسمعك واشغل بحديثه خاطرك و بمنظره ناظرك واستمعه استماع مستظرف لحديثه مستبشر به، واحذر ان تعاتب الملك على تقصير أو تلومه في تدبير،فان ذلك يفضي الى مقتك وبعدك منه بعد قربك ، ولا تكاشفه بالنصيحة في الخلوة ولا

تنبسط عليه في الجلوة فان النصح في الملأ تقريع والتبسط عليه تضييع ولهذا يقال شعر

تعمدني بنصح في انفراد　　وجنبني النصيحة في الجماعه
فان خالفتني لتريد نقصي　　فلا تغضب اذا لم تعط طاعه
فان النصح بين الناس ضرب　　من التوبيخ لا أرضى استماعه

واذا قربك بأنسه وأدناك من مجلسه فالزم الاحترام وقابله بالاعظام ولا يخرجك ماتراه من أنسه الى السماح ومكروه المزاح ، واياك وازالة الحشمة واضاعة الحرمة والهزل والشره في أكل الطعام فان هذه الحالة تدعو الملك الى الملال ، ولا تنادر في مجلسه انسانا ولا تحدق الى الغلمان ، واذا دخلت على الملك فحيه بأحسن تحية وتواضع اليه بالكلية ، ولا تكثر من الدعاء له بحضرته ولا تسأله عن حالته ولا عن مبيته في ليلته ، ولا تكثر مدحه ولا تظهر نصحه في حضرته ، فجميع ذلك من مساوىء الاخلاق والتملق والنفاق ، واذا جلست على موائد الملوك فلا تكن في الطعام شرها ولا في الاكل نهما وكل مما يليك وأكثر من المضغ في فيك واجعل نظرك الى الطعام الذي بين يديك ولا تنظر الى من حواليك ، ولا تأكل بكل الاصابع وقم عن المائدة وأنت جائع ، ولا تحدق ببصرك الى الطعام ولا الى ماحضر من طرائف الالوان ، بل يكون نظرك الى الملك عند كلامه والاطراق عند مضغه لطعامه ، ولا تنقل من الصحفة الى الرغيف شيأ من اللحم ولا تتعرض الى مرمشة العظم ، ولا تحول اللقمة من جانب فيك الى الجانب الاخر ، ولا يسمع لمضغك وبلعك صوت ظاهر ، لان المقصود من طعام الملك الشرف بمواكلته والتجمل بلطف كرامته ، ومن قام من الطعام لغسل يده فسبيله ان يبعد عن حضرته الى الموضع الذي خص بمرتبته ولا يبصق في الطشت بصاقا يعلو صوته

ولا يستعمل بيده التفرقع ولا يدلك بالمنديل يديه بل يمسح به فمه وشفتيه، ولا يظهر في يديه شيئاً من الخلال على حال من الاحوال ،وان لايساوي الملك في مجته ولا يدني رأس دابته من دابته، ولا يأخذ عليه مهب الريح في مسايرته، ولا يركب فرساً شجاً شعثا ولا حرونا فيقف عنه ولا كثير الصهيل ولا ما فيه عيب يضحك منه ، وينبغي ان يكون عارفا بالمنازل والمناهل دارياً بكل مايقع عليه عين الملك ويسأل عنه من المياه والانهار والنبات والاشجار ومضي ساعات الليل والنهار ، عارفاً بالكواكب وانتقالاتها ومنازل القمر وهيئاتها وان لايظهر التعب والكلال وان يخفي السعال والعطاس ، وليكن متفقد النكتة ظريفاً في محادثته صبوراً على السهر غير متشاغل بالفكر ، حافظاً للاسرار ،ومايطلع عليه من الاخبار ، معتمدا على الصيانة مؤدياً للامانة ، فاذا لاعب الملك بالشطرنج فلا يظهر في لعبه التحاذق عليه فأمافي حال الفروسيه ولعب الصولجان فقد لا يكره الملوك التحاذق عليهم في الميدان والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب

الباب الثالث عشر

في معرفة ما يكاد به الملوك في غالب الاحوال

اعلم ان مكائد الاعداء وغوائل الحساد وطرق المضار واسباب الدواهي كثيرة لا يحيط بطرقها علم البشر ولا يحصرها معقول ذوي الفكر ، فيجب على الملك الاحتراز والتحفظ من كل ما يتصور عمله في المكايد ويتصدر فعله من نصب الغوائل ويعتبر بمن سلفه من أرباب الممالك وما نصب لهم من المكايد والمهالك ، وقد ذكرنا في الباب السادس في وصف الحسد من حكاية بهرام وخاقان وما نصب كل منهما لصاحبه من المكيدة ما فيه اعتبار لذوي البصائر

والافكار، وأكثر ما رأينا يحدث في غالب الاحوال من أمور نحن ذاكروها ان شاء الله تعالى. فمن ذلك السموم القاتلة التي يتلطف بها الاعداء في الحيلة بوصولها الى الملوك على يد النسوان والغلمان، وهو يصنع غالبًا في عشرة أشياء في السرج والسرير والكرسي والحلي والآنية والطعام والفاكهة والثياب والفراش الذي ينام عليه، وينبغي للملك ان يكون متيقظا لذلك محترسا منه، وسنذكر من العلامات الواضحة في هذه الاشياء ما فيه كفاية للفطن بحيث اذا رآها علم انه مسموم، وينبغي للملك ان يتفقد ثيابه كل يوم وفراشه أيضاً وغاشيته الذي على سرج الحصان وكرسيه الذي يجلس عليه، فان علامة ذلك ان كان مسموما ان يظهر في صفاء الوانها لمع كالرسخ يضرب الى سواد من غير وسخ، وهدبها وحواشيها في نظر العين كانها بالية، وأما ظاهر السرج والسرير والكرسي اذا كان ملطوخا بالسم يكمد لونه ويعلوه كالغبرة وأما الحلي والآنية وما يستخرج من معادن الارض كالذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد فان ذلك كله اذا كان مسموماً يعلوه كالرسخ، وأما أواني الخزف والفخار فانها ان كانت مسمومة تحدث كسومة وزهومة وربما أفرط صفاء لونها حتى رؤي فيها بريق ليس من ذاتها وربما ذهب بريقها الذي هو من ذاتها، وأما الطعام المسموم يستدل عليه من وجهين (احدهما) بالنار فان الطعام المسموم اذا وضعت منه شيئاً في النار لم يصعد دخانه مستطيلا الى الهوى بل يدور على ذلك الطعام ويسمع له صوت وأيضاً يكون طرف ما ينبعث من النار كأنه عنق الطاووس وأيضاً مما يظهر منه اذا احترق رائحة منتنة (الوجه الثاني) ان يعرض الطعام على الطير والدواب التي هي معدة في دار الملك لمعرفة الطعام المسموم، فاما الطير فمنها الغراب فانه اذا أكل من الطعام المسموم انكسر صوته، وأما الصرد والقفعاء فانهما اذا شما

الطعام المسموم صوتا بأعلى صوتهما ومنها طائر من جنس الاوز الصيني يقال له الهيش فانه اذا رأى الطعام المسموم وشم رائحته هرب منه وجعل يتعثر في مشيه ومنها الكركي فانه اذا شم رائحة الطعام المسموم أو أكله فانه يدور حتى يظن انه مغشي عليه ، ومنها الفواخت والعقق فانهما يموتان بأكل الطعام المسموم وكذلك اذا شما رائحته أيضاً ، ومنها الطاووس فانه اذا رأى الطعام المسموم تشوف اليه وطفق يأكله ويهواه ، ومنها طائر من طيور الماء أحمر العينين يقال له حيوحين فانه اذا نظر الطعام المسموم خر الى الارض مغشياً عليه والذباب اذا سقط على الطعام المسموم مات من ساعته ، وأما الدواب المعدة لذلك فمنها السنور فانه اذا أكل من الطعام المسموم أو شم رائحته نفر من موضعه ولم يستقر فيه ، ومنها القرد فانه اذا قدم اليه الطعام المسموم أيضاً لم يتمالك حتى يهرب منه ويصعد في الاشجار والحيطان. فهذا كله يستدل به على الطعام المسموم فينبغي للخادم المقدم للطعام ان يمتحنه بالنار ويعرضه على الطير والدواب التي ذكرناها قبل احضاره بين يدى الملك ،واذا كان الطباخ بصيرا حاذقا عرف السم اذا طرح في القدر بالامارة الدالة عليه فان قدر الارز اذا وضع فيها السم أبطأ نضجها وذا نزلت عن النار انعقد فيها سريعاً وصلب حبها ويفور من القدر بخار كلون عنق الطاووس ، وقدر المرق اذا وضع فيها السم فلا يلبث الا قليلا حتى تنشف المرقة منها ويبقى اللحم يابساً لا مرقة عليه ومهما بقي منه تغير لونه وكدر وأما دليل معرفة السم في الشراب المسموم فان كل شراب حلو اذا طرح فيه السم يظهر فيه خط مستطيل كلون النحاس ويظهر في المحيط خطوط من الخضرة والصفرة والسمرة ويظهر في ماء العسل خط كلون شعاع الشمس ويظهر في الماء والنبيذ خط اسود . وأما معرفة الفواكه المسمومة فان ما لم يدرك منها يظهر للعين

كأنه مدرك ، والتي قد أدركت منها تظهر كأنها لم تدرك لتغييرها وانقباضها وكل رطب منها تراه كالمهري وكل يابس تراه منقبضاً متشنجاً وجميع الفواكه يذهب صفاء لونها ويعلوه غبرة وكدرة ويصير اللين منها صلباً والصلب منها ليناً واعلم ان واضع السم في بعض هذه الاشياء أو صانع مكيدة من مكائد الاعداء من النسوان أو الغلمان أو الخدم وغيرهم لابد ان يظهر عليه من الريبة امارة لايخفى فيها على الفطن اللبيب، فينبغي للملك ان يتصفح وجوه خدمه وغلمانه وجواره ونسائه في كل وقت فان المريب لايملك نفسه ان يصفر لونه أو يخضر أو يبتلع ريقه ويخفق فؤاده أو يعض على شفته السفلى أو يكثر تلفته وترعد فرائصه أو يتعثر في مشيه أو يكثر تثاؤبه أو يعرق جبينه أو يفتل اهداب ثيابه ويعبث بها أو ينكث الارض بابهامه الكبير من رجله أو ينقطع عما يريد ان يتكلم به أو يكثر القيام في العمل الذي يعمله ولم يتمه لغير عذر . فجميع هذه امارات تدل على الريبة فليراعها الملك من متولي طعامه وشرابه ومتولي خزانة ثيابه وفراشه وسروج دوابه وغيرهم من خدم داره ، وأما الاحوال التي يترصدها أهل المكائد في الغالب، فمنها المواضع الضيقة والجهات المجهولة من الطرقات فلا ينبغي ان يسلكها حتى يكون أمامه دليل خبير بذلك الموضع ويتقدمه في ذلك جماعة من اعوانه . ومنها ازدحام الموكب عليه في المواضع الضيقة أو في الاعياد والمحافل فلا يأمن ان يلج بين خواصه من يريد به شرا ، ومنها الامعان في طلب الصيد والانفراد فيه عن الخاصة وثقاة الاعوان فلا يأمن ان يدس عليه أهل العداوة ممن يوقع به الفعل أو يكمن له الاعداء على الخيول السريعة في المواضع الوعرة أو يعرض له أحد السباع الضارية عند انفراده . ومنها الورود على الانهار فان اغتيال المرء صاحبه في الماء الجاري اسهل منه على ظهور الخيل لان الماء

معين له على هربه لاسيما اذا كان رجال الملك وراء ظهره. فينبغي ان لا يردها حتى يتقدمه من أعوانه من يخبر شطوطها ومشارعها، ومنها حالة شدة المطر وحال شدة الحر وحال ظلام الليل فانه في هذه الاحوال تقل الحفظة ويشتغل كل واحد منهم بمصلحة نفسه، ومنها حال سروره ولهوه وطربه في مجلسه وسكره وشرابه فان الحفظة أيضاً يسكرون أو ينامون فيتمكن منهم المحتال، ومنها الثقة الى النسوان والركون اليهن فان مكر النسوان وحيلهن أكثر من بساطتهن مع ضعفهن وقلة عقولهن فلا يأمن مكرهن وغيرتهن وغاراتهن فقد يقدمن على الاهوال وما يعجز عنه الرجال فليراع الملك جميع ما ذكرناه وما يخطر بباله من أشباه ذلك وأمثاله مع تسليمه الأمر لله تعالى وقضائه وقدره سبحانه وتعالى

الباب الرابع عشر

فيما ينبغي للملك من سياسة الجيش وتدبيره

اذا أراد الملك التوجه بجنوده الى أعدائه فينبغي له ان ينيلهم في تدبيرهم وسياسة أمورهم سبعة عشر حقا ليتم بذلك مصلحتهم وينتظم به حالهم (أحدها) استعراضه قبل المسير بهم فيتفقد خيلهم التي يجاهدون عليها فلا يدخل عليها كبيرا ولا صغيرا لان ذلك كله وهن في المجاهدين فانما يستعد للاعداء بالقوة وما تظهر به الهيبة والرهبة. قال الله تعالى وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم. ارتبطوا الخيل فان ظهورها لكم عز وبطونها لكم كنز، ويتفقد جميع أسلحتهم وسائر آلاتهم وأمتعتهم ويأمرهم باتخاذ قويها واستبدال ضعيفها (الثاني) ان ترفق في السير ليقدر عليه ضعيفهم وتحفظ به قوة قويهم ولا يجد السير فيهلك

الضعيف ويستفرغ قوة القوي . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :ان هذا الدين متين فاغلوا فيه برفق فان المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى (الثالث) يراعي من معه من المقاتلة وهم صنفان مسترزقة ومتطوعة فاما المسترزقة فهم أصحاب الديوان فيفرض لهم من العطاء من بيت المال من الفيء بحسب الغنى والكفاية وأما المتطوعة فهم الخارجون عن الديوان الذين خرجوا في النفير فيعطون من بيت المال من الصدقات دون الفيء من سهم رسول الله صلى الله عليه وسلم المذكور في آية الصدقات (الرابع) ان يعرف عليهم العرفاء وينقب عليهم النقباء فيكون عارفا بجميع أحوالهم من عرفائهم ونقبائهم وقد فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم (الخامس) ان يجعل لكل قائد منهم شعارا يتميز به أصحابه ليصير به عن غيره مميزا (السادس) ان يتصفح الجيش عند مسيره فيخرج منهم من كان به تخذيل للمجاهدين وارجاف بالمسلمين ولو كان غنياً فقد فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ورد عبد الله ابن أبي سلول المنافق في بعض غزواته لتخذيله للمسلمين (السابع) ان لا يتعرض عند اللقاء لمن خالفه في العقيدة والمذهب أو لمن ظهرت عليه امارات البغضاء أو لمن أساء أدبه على الملك اومن حضر في خدمته لان التعرض لهؤلاء في مثل هذا الوقت يفضي الى الفراق وافتراق الكلمة وحصول الفشل . قال الله تعالى — ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم — اي دولتكم . وقيل معناها قوتكم (الثامن) حراسة الجيش من غدرة يظفر بها العدو فينبغي ان ينتقي المكامن ويحفظها عليهم ويحوط اطرافهم بحرس يأمنون به على انفسهم واموالهم ليتنبهوا وقت الدعوة ويأمنوا وراءهم في وقت المحاربة (التاسع) ان يتخير لهم موضع نزولهم لمحاربة عدوهم فيقصدوا وطأ الارض مكانا واكثرها مرعى وماء واكثرها سعة واحرسها اكنافا واطرافا ويكون

الموضع سالما من جبل او شجر فان في ذلك كله عونا لهم على المنازلة واقوى لهم على المرابطة (العاشر) اعداد ما يحتاج اليه الجيش من زاد وعلوفة ليفوق ذلك عليهم في اوقات الحاجة حتى تسكن نفوسهم الى مدة تعينهم على الطلب ليكونوا على الحرص اوفر وعلى منازلة العدو اقدر (الحادي عشر) ان يتعرف اخبار عدوه بالجواسيس الثقاة التي تكون له عندهم مكانة ليكون خبيرا باحوالهم ويسلم من مكرهم ويلتمس العزم في الهجوم عليهم (الثاني عشر) ترتيب الجيش في مصافة الجيش والتعويل في كل جهة على من يراه كفوءا لها ويتفقد الصفوف بنفسه من حصول خلل يقع فيها ويراعى كل جهة يميل العدو اليها بمدد يكون عونا لها (الثالث عشر) ان يحرض المؤمنين على القتال ويقوي نفوسهم وعزمهم على الظفر ويذكر لهم اسباب النصرة ويصغر العدو في اعينهم ويعدهم الاقطاع والزيادة في الرزق اذا ظهرت منهم النكاية في العدو (الرابع عشر) ان يذكرهم ثواب الله تعالى وما اعد الله لهم في الآخرة من النعيم المقيم ويذكرهم الشهادة وفضلها ويعدهم بابقاء رزقهم على اولادهم من بعدهم (الخامس عشر) ان يشاور ذوي الرأي منهم وأهل الخبرة بالقتال والمشايخ من اعوانه واهل دولته ويرجع اليهم فيما اشاروا ويسلم الأمر اليهم فيما أشكل عليه من الخطأ ليسلم من الزلل (السادس عشر) ان يلزم بما أوجبه الله تعالى من حقوقه وبما أمره الله تعالى من مراعاة حدوده لانه من جاهد عن الدين كان أحق الناس بالتزام احكامه والفصـل بين حلاله وحرامه . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . انهوا جيوشكم عن الفساد فانه ما أفسد جيش قط الا قذف الله تعالى في قلبه الرعب وانهوا جيوشكم عن الزنا فانه ما زنا جيش الا سلط الله عليه الموتان (السابع عشر) ان لا يترك احدا من جيشه يشتغل بتجارة أو زراعة

لان ذلك يذهب الاهتمام من مصابرة العدو ويضعف الصدق في الجهاد . وقد روي ان نبيا من بني اسرائيل غزا غزوة لهم فقال لايغزون معي رجل بنى بناء لم يكمله ولا رجل تزوج بامرأة لم يدخل عليها ولا رجل زرع زرعا لم يحصده واذا سار الملك بالجيش ودخل ارض العدو فينبغي ان يكون طلائع جيشه ومقدمته كالنهر الجاري فان النهر في اول جريه يتخلل ما يمر به من الأرض المستوية . فاذا بلغ نشوا من الأرض وقف عنه حتى يقوى بالمدد من ورائه ثم يعلو ذلك النشو . فكذلك ينبغي ان تكون طلائع الجيش التي تتقدم عليه لاتقتحم ما ترى بالقوة على العدو الذى امامها الا بان تستمد من ورائها . فاذا أتاها المدد قويت على من تمر عليه كعلو النهر اذا استمد من ورائه . ولا ينبغي ان يقدم على مقاتلة الناحية المجهولة حتى يتقدم اليها من يخبرها من طلائعه فقد كان يقال: لاتطأ ارض عدوك الا على اقوى احتراس وتوق افتراسه فانك لاتأمن أن يكون قد نصب لك فيها الاشراك ودفن الغوائل والشباك

...

الباب الخامس عشر

فيما ينبغي لاهل الجيش ويلزمهم من حقوق الجهاد

اذا توجه الملك بالجيش الى قتال المشركين لزم اهل الجيش من الحقوق امران احدهما مايلزمهم من حق الله تعالى — الثاني مايلزمهم من حق الملك، فاما مايلزمهم من حق الله تعالى فأربعة اشياء احدها مصابرة العدو عند التقاء الصفين ولا ينهزمون من مثليهم فما دون فان الله تعالى في الاصل فرض على كل مسلم ان يقاتل عشرة من المشركين— قال تعالى يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً —

وان الله بعد ذلك خفف عليهم لما شق عليهم الامر فاوجب على كل مسلم ان يقاتل رجلين من المشركين فقال عز وجل — الآن خفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضعفاً فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وان يكن منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله — ثم ان الله حرم على كل مسلم ان ينهزم من مثليه الا لاحد أمرين ، اما متحرف لقتال فيأوي للاستراحة أو لمكيدة ويعود الى قتالهم ، واما ان يتحيز الى فئة أخرى ليجتمع بها على قتالهم لقوله تعالى — ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفاً لقتال أو متحيزاً الى فئة فقد باء بغضب من الله — الثاني ان يقصد بقتاله نصرة دين الله وابطال كلمة من خالفه من الاديان فيكون عند الاعتقاد حائزاً لثواب الله تعالى ومطيعاً له في أمره ، ولا يقصد بقتاله فائدة تحصل من الغنيمة فيصير من المكتسبين لا من المجاهدين . الثالث ان يؤدي الامانة فيما حازه من الغنائم لم يغل منها شيئاً بل يحمله جميعه الى المغنم ليقسم بين الغانمين الذين شاهدوا الواقعة لان لكل واحد منهم فيها حقاً . الرابع ان لا يراعي في نصرة دين الله تعالى ذا قرابة أو مودة فان حب الله تعالى أوجب ونصرة دينه ألزم ، قال الله تعالى — يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق — وأما ما يلزم الجيش من حق الملك فاربعة أشياء ، أحدها التزام طاعته والدخول في ولايته والقبول لامره ونهيه ما لم يأمرهم بالمعصية فان طاعة الملك واجبة في غير المعصية لقوله تعالى — يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول الآية — قال ابن عباس رضي الله عنه وأولوا الامر الامراء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اسمعوا وأطيعوا ولو استعمل عليكم عبد حبشي . فأما اذا أمر بمعصية فلا يجوز طاعته لقوله صلى الله عليه وسلم : لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق — الثاني ان يفوضوا أمرهم الى رأيه ويكلوه الى تدبيره حتى

لايختلف رأيهم فتختلف كلمتهم ويتفرق جمعهم، فان ظهر لهم صواب في شيء خفي على الملك فينبغي ان يبينوه له سرا ليرجع به الى الصواب . الثالث المسارعة الى امتثال أمره ونهيه في غير المعصية . الرابع ان لاينازعوه في شيء من قسمة الغنائم اذا قسمها فيهم بل يرضوا به في القسمة فانه يساوي بينهم ولا يأبى ان يعدل بين القوي والضعيف ويماثل بين الدنيء والشريف، وسنذكر القسمة في بابها

الباب السادس عشر

في مصابرة المشركين

اذا تقاتل فريق المؤمنين وفريق المشركين وجب على الملك مصابرتهم ما صبروا وان طالت بهم المدة ولا يولي عنهم وبه قوة، فقد قال الله عز وجل ياأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون — فقال الحسن معناه اصبروا على طاعة الله وصابروا أعداء الله ورابطوا في سبيل الله وينبغي للملك ان يرتب جيشه ويجعل لكل طبقة من أعدائه أشباههم من جيشه فانهم كالماء في الاذن اذا دخلها فلا حيلة أرفق في اخراجه من الماء الذي هو من جنسه، واذا حمل على أعدائه فليكن كالنهر اذا جرى لا انثناء له ولا رجعة حتى يبلغ غايته ومنتهاه من مفيضه، وكذلك ينبغي ان يشد الملك في حملته حتى ينال من عدوه ويبلغ غايته واذا عاد أحد من المشركين الى البراز جاز للمسلم ان يخرج اليه لان ابن أبي خلف دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم أحد للبراز فبرز اليه فقتله وفي يوم بدر ثلاثة مشركون وهم عتبة بن ربيعة وابنه الوليد وأخوه شيبة بن ربيعة ودعوا الى البراز فبرز اليهم من الانصار عوذ ومعاذ بن عفراء وعبدالله بن رواحة فقالوا انا لانعرفكم فليبرز الينا أكفاؤنا من قريش، فبرز

اليهم ثلاثة من بني هاشم وهم علي بن أبي طالب وحمزة بن عبد المطلب وعبيدة، فأما علي بن أبي طالب رضي الله عنه فبرز الى الوليد فقتله وبرز حمزة الى عتبة فقتله وبرز عبيدة الى شيبة فاختلفا ضربتين أثبت كل واحد منهما صاحبه فمات شيبة لوقته وحمل عبيدة حياً فمات بعد ذلك وروي ان عمرو بن عبد ود العامري دعا الى البراز في اليوم التالي فلم يجبه أحد ثم دعا في اليوم الثالث فلم يجبه أحد، فقال يا محمد ألستم تزعمون ان قتلاكم في الجنة عند ربهم يرزقون وقتلانا في النار يعذبون ؟ فلماذا يبالي أحدكم ان يقدم على كرامة ربه ويقدم عدوه الى النار؟ ثم أنشد شعراً

ولقد بححت من الند ... اء لجمعهم هل من مبارز
ووقفت اذ جبن المشجع ... موقف القرن المناجز
اني لذلك لم أزل ... متسرعا نحو الهزاهز
ان الشجاعة في الفتى ... والجود من خير الغرائز

قال: فقام اليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فاستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في مبارزته فأذن له بعد معاودة وقال اخرج اليه في حفظ الله وعنايته فخرج علي رضي الله عنه وهو ينشد هذه الابيات

ابشر أتاك مجيب صو ... تك في الهزاهز غير عاجز
ذو نية وبصيرة ... يرجو الغداة نجاة فائز
اني لأرجو ان أقيـ ... ـم عليك نائحة الجنائز
من طعنة نجلاء يبـ ... ـقى ذكرها عند الهزاهز

قال فتجاولا ساعة ثم حمل كل منهما على صاحبه وثارت بينهما عجاجة أخفتهما عن الابصار ثم انجلت عنهما واذا عليٌّ رضي الله عنه وهو يمسح سيفه بثوب عمرو

وهو قتيل — واذا أراد المسلم ان يدعو الى البراز مبتدئا جاز له ذلك لان جماعة من الصحابة رضي الله عنهم فعلوا ذلك. وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن المبارزة بين الصفين؟ فقال؟ لا بأس، وينبغي ان لا يبارز الا من اشتهرت قوته وعلمت شجاعته لان الضعيف اذا بارز لا يأمن ان يقتل فتضعف قلوب المسلمين. ويجوز لاحد الجيش ان يحمل منفردا على جيش المشركين، وقد كان يفعل ذلك جماعة من الصحابة رضي الله عنهم. وروي ان الخنساء بنت عمرو بن الشريد السلمية حضرت حرب القادسية ومعها بنوها الاربعة، فقالت لهم من أول الليل: يا بني أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين فوالله الذي لا اله الا هو انكم لبنو رجل واحد كما أنتم بنو امرأة واحدة ما خنت أباكم ولا خالكم ولا هجنت حسبكم ولا غيرت نسبكم، وقد تعلمون ما أعد الله تعالى من الثواب للمسلمين في حرب الكافرين واعلموا ان الدار الباقية خير من الدار الفانية يقول الله تعالى — لا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون — فاذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها واضطرمت لظاها عن بساقها فيمموا في طلبها وجالدوا رئيسها تظفروا بالغنم أو الكرامة في دار الخلد والمقامة قال فخرج بنوها من عندها قابلين لنصحها، فلما كان الصبح باكروا مراكبهم فحين تقابل الصفان حمل احدهما على جيش المشركين وهو ينشد

يا اخوتي ان العجوز الناصحه | قد نصحتنا اذ دعتنا البارحه
حالة ذات بيان واضحة | فبادروا الحرب العروس الكالحه
فانتم بين حيـاة صالحه | أو ميتة تورث غنما رابحه

فلم يزل يضرب فيهم بسيفه ويطعنهم برمحه حتى استشهد رحمة الله تعالى عليه، ثم حمل الثاني وهو ينشد

قد أمرتنا بالسداد والرشد نصيحة منها وبرا بالولد
فباكروا الحرب حماة في العدد اما لفوز بارد على الكبد
أو ميتة تورثكم غنم الابد في جنة الفردوس والعيش الرغد

فلم يزل يضرب بهم بسيفه ويطعنهم برمحه حتى استشهد رحمة الله تعالى عليه، ثم حمل الثالث وهو ينشد

لست فتى الخنسا ولا ابن الاكرم وأعني عمرو اذا السماح الاقدم
ان لم أذد في الحرب جيش الاعجم اما لفوز عاجل أو مغنم
أو لحياة الدين أفدي بدمي أو لوفاة في السبيل الاقوم

فلم يزل يطعن فيهم برمحه ثم استشهد رحمه الله. فلما بلغ خنساء الخبر قالت الحمد لله الذي شرفني بقتلهم وأرجو من ربي ان يجمعني أنا واياهم في مستقر رحمته. فلما بلغ ذلك عمر ابن الخطاب رضي الله عنه قال: اعطوا الخنساء أرزاق أولادها وأجروا عليها ذلك حتى تقبض. فلم تزل تأخذ عن كل واحد منهم مائتي درهم حتى قبضت رضي الله عنها. وينبغي ان يكون سواد العسكر وجمهور الموكب ممتداً كامتداد النهر اذا طمى وزخر لا يمر بشيء الا علاه وغرقه

الباب السابع عشر

في معرفة قتال أهل الردة وأهل البغي وقطاع الطريق

نقتصر في هذا الباب على ذكر ما يجوز للملك فعله ونوضح قواعد المذهب في ذلك من غير ذكر خلاف ولا تطويل ليقع الفعل في ممارستهم موافقاً للشرع وهو ثلاث فصول

(الفصل الاول) في معرفة قتال أهل الردة — اذا حكم باسلام قوم ثم ارتدوا

عن دين الاسلام الى أي دين خالفه لم يجز اقرارهم عليه لان الاقرار بالحكم يوجب التزام أحكامه. ثم لايخلو حال أهل الردة من أمرين احدهما أن يكونوا في دار الاسلام أفراداً لم يتحيزوا بدار يمتنعون بها عنه ويتميزون عن المسلمين فيها . الثاني أن ينحازوا الى دار ينفردون بها عن المسلمين حتى يصيروا فيها ممتنعين ، فان كانوا في دار الاسلام منفردين فلا حاجة لقتالهم لدخولهم تحت القدرة بل يجب أن ياخذهم بالتوبة مما دخلوا فيه من الباطل ، فان تابوا قبلت توبتهم واجرى عليهم أحكام الاسلام : ومن أقام منهم على ردته وجب قتله رجلا كان أو امرأة لقوله صلى الله عليه وسلم من بدل دينه فاقتلوه ، واختلف العلماء في كيفية قتل المرتد والوقت الذي يقتل فيه ،فمنهم من قال يقتل في الحال لان حق الله تعالى اذا وجب لايجوز تأخيره، ومنهم من قال يؤجل ثلاثة أيام لان علي بن أبي طالب رضي الله عنه نظر المستورد العجلي بالردة ثلاثة أيام ثم قتله بعد ذلك ، ويقتل ضرباً بالخشب واذا قتل لم يغسل ولم يكفن ولم يصل عليه ولايدفن في مقابر المسلمين ويكون ماله فيئاً الى بيت مال المسلمين، واما اذا انحاز أهل الردة الى دار ينفردون بها عن المسلمين حتى صاروا فيها ممتنعين وجب قتالهم على ردتهم ،ويجرى على قتالهم حكم قتال أهل الحرب في جواز قتلهم غرة و بياتاً ومقبلين ومدبرين ،ومن أسر منهم جاز قتله ولا يجوز استرقاقه واذا أغنمت أموالهم لم تقسم بين الغانمين بل يكون مال من قتل منهم فيئاً لبيت المال ومال من لايقتل موقوفاً على اسلامه ان عاد الى الاسلام رد عليه ماله

(الفصل الثاني)في معرفة قتال أهل البغي — واذا خرجت طائفة من المسلمين وخالفوا رأي الجماعة وانفردوا عنهم وخرجوا عن قبضة الامام الاعظم وتحيزوا وامتنعوا بمنعة وجب قتالهم بعد أن ينذرهم ويسألهم ماينقمون لان علي رضي الله

عنه بعث عبد الله بن العباس الى الخوارج فسألهم ماينقمون منه ثم يؤخرهم وينظرهم فان رجعوا الى الطاعة كف عنهم وان أبوا قاتلهم لقوله تعالى — وان طائفتان من المؤمنين اقتتلا فاصلحوا بينهما فان بغت احداها على الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله — وقاتل أبو بكر الصديق رضي الله عنه مانع الزكاة وقاتل علي رضي الله عنه الخوارج بالهذوان وقاتل معاوية بصفين. واعلم ان قتالهم يخالف قتال المشركين من تسعة أوجه احدها لا يهجم عليهم غرة ولا بياتاً ويجوز ذلك في قتال المشركين — الثاني أن يقصد بقتلهم ردهم وردعهم ورجوعهم الى الحق ولا يعتمد الى قتلهم — الثالث يقاتلهم مقبلين ويكف عنهم مدبرين — الرابع أن لا يجهز على جريحهم — الخامس أن لا يقتل اسراهم — السادس ان لا تغنم اموالهم ولا تسبى ذراريهم — السابع أن لا يستعين على قتالهم بمشرك معاهد ولا ذمي — الثامن أن لا يهادنهم الى مدة ولا يوادعهم على مال فان هادنهم الى مدة لم يلزم فان ضعف عن قتالهم انتظر بهم القوة عليهم وان وادعهم على مال بطلت الموادعة، ثم ينظر في المال فان كان من صدقاتهم وخراجهم لم يرده عليهم وان كان من خالص الاموال رد اليهم ولا يجوز أن يتملكه عليهم — التاسع أن لا ينصب عليهم العربات والمنجنيقات ولا يحرق عليهم المساكن ولا يقطع اشجارهم لان دار الاسلام تمنع من كل ذلك، بخلاف قتال المشركين فان احاطوا بأهل العدوان وخافوا منهم الاصطلام جاز أن يدفعوا عنهم ما استطاعوا من قتل ونصب المنجنيقات عليهم وحرقهم بالنار وغير ذلك لان المسلم اذا أصابه ضرر بحيث لا يندفع الا بقتل من قصده جاز له الدفع بالقتل، ولا يجوز أن ينتفع بدوابهم ولا أسلحتهم ولا يستعان بها في قتالهم، وقال أبو حنيفة رحمه الله يجوز ذلك

(الفصل الثالث) في معرفة قطاع الطريق — فان اجتمعت طائفة من أهل الفساد

على شهر السلاح وقطع الطريق وأخذ الاموال وقتل النفوس ومنع السبيل فهم المحاربون الذين قال الله تعالى في حقهم — انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فسادا ان يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع ايديهم وارجلهم من خلاف أو ينفوا من الارض — قال الشافعي رضي الله عنه: من قتل منهم وأخذ المال قتل وصلب بعد قتله، ومن قتل ولم يأخذ المال قتل ولم يصلب، ومن أخذ المال ولم يقتل قطعت يده ورجله من خلاف، ومن لم يقتل ولم يأخذ المال ولكنه أرهب واخاف السبيل عذر بالحبس وهو النفي من الارض: وقال مالك رضي عنه: من كان ذا رأي وتدبير قتل، ومن كان ذا بطش وقوة عذر وحبس. واعلم ان قتال قطاع الطريق كقتال أهل البغي في عامة أحوالهم ويخالفه في خمسة أوجه. احدها يجوز قتالهم مدبرين ومقبلين بخلاف قتال أهل البغي. الثاني يجوز أن يعمد الى قتل من قتل منهم في حال الحرب بخلاف قتال أهل البغي. الثالث أنهم يؤخذون بما استهلكوه من دم أو مال في الحرب وغيرها بخلاف أهل البغي. الرابع أن يجوز حبس من اسر منهم ليعلم براءة حالهم من غير خلاف بخلاف أهل البغي. الخامس ان ماجبوه من الخراج والصدقات يكون كالمأخوذ من وجه الغصب والنهب لا يسقط عن أهل الخراج والصدقات ويكون غرمه مستحقاً عليهم لمن أخذوه منهم بخلاف أهل البغي

الباب الثامن عشر

في معرفة قسمة الغنيمة والانتمال

اذا أخذ المسلمون من الكفار مالا بزحف الخيل والركاب فهو غنيمة يجب على الملك أن يقسمها مابين الغانمين فتجعل خمسة أخماس، خمس منها لاهل الخمس

الذين قال الله عز وجل في حقهم — واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه ولرسوله ولذوي القربى واليتامى وابن السبيل — واربعة اخماس للغانمين، وينبغي أن يقسم ذلك كله في دار الحرب لان رسول الله صلى الله عليه وسلم قسم غنائم بني المصطلق على مياههم وقسم غنائم حنين باوطاس وهو واد من حنين، ولا يدخل سلب المقتول في القسم بل يكون للقاتل دون غيره ، لان رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل السلب للقاتل ، فان كان الجيش كلهم فرسانا سوّى بينهم في القسمة، وكذلك اذا كانوا رجاله، وان كان بعضهم رجالة وبعضهم فرسانا جعل للرجل سهما واحدا وللفارس ثلاثة أسهم ،سهم للرجل وسهمان للفرس، ويجعل من قاتل ومن لم يقاتل سواء في القسمة، وكذلك من حضر بفرسين أو اكثر لم يزد سهمه على من حضر بفرس واحد ، واذا بعث الملك سرية من الجيش الى جهة الكفار فغنمت السرية شاركها في ذلك أهل الجيش ، وكذلك ان غنم أهل الجيش شاركهم اهل السرية لان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هزم هوازن بحنين اسرى سرية قبل أوطاس فغنمت فقسم غنائمها بين الجميع ، ومن فعل من أهل الجيش فعلا يفضي الى الظفر بالعدو كالتجسس والدلالة على طريق أو قلعة أو التقدم بالدخول الى دار الحرب جاز للملك أن ينفله من الغنيمة زيادة على سهمه لان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يفعل ذلك

الباب التاسع عشر

فيما ينبغي للملك ان يفعله عند قفوله بالجيش

ينبغي للملك اذا قفل بالجيش من غزوة أو سفر ان يفعل كما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في قفوله من غزواته واسفاره فقد كان يكبر على

كل شرف من الارض ثلاث تكبيرات ويقول: لااله الا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي دائم لايموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون، صدق الله وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الاحزاب وحده، كل شيء هالك الا وجهه له الحكم واليه ترجعون . وينبغي اذا أشرف على مدينة ان يحرك دابته ويقول: اللهم اجعل لنا بها قرارا ورزقا حسنا، ثم يرسل الى نوابه وأهل مدينته فيخبرهم بقدومه ليخرجوا الى لقائه لان الرعية ينتعشون بطلعة الملك عليهم ورجوعه اليهم كانتعاش النبات بوابل المطر، واذا دخل البلد فليقصد المسجد ويصلي فيه ركعتين كذلك كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، واذا دخل منزله واستقر على سريره رفع حجابه وفتح بابه وأذن لوجهاء بلدته وبياض رعيته بالدخول لتهنئته بما أفاء الله عليه وحققه لديه من شمول النعمة وحسن المنقلب، ثم يكثر من الصدقات والصلاة ويوسع في العطايا والهبات ويرد المغصوب والمظلومات ويكشف عن أحوال من حبسه من أهل الخطيئات ويستكثر من صنائع المعروف وافعال البر، فانه اذا فعل ذلك كان شاكرا لله وكان لمزيد النعمة مستحقا ولتتابع الاحسان من الله مستوجبا

الباب العشرون

في الحث على استماع المواعظ وقبولها من النساك

اعلم ان استيلاء الدنيا على الملوك واقبالها عليهم ربما شغلتهم عن أمر الآخرة واغفلتهم عن مهمات الدين فيجنحون الى اللذات ويهملون أمر الديانات لان النفوس مطبوعة على الميل الى الترف وايثار التنعم وكراهة التكليف فلا

ينبغي ان تخلو مجالسهم من علماء الدين وصلحاء المسلمين لينبئوهم عند طروق الغفلة ويذكروهم عند حرارة الشهوة ويوضحوا لهم نهج الآخرة ومعالم الشريعة وقد كان شعار الملوك العارفين والخلفاء الراشدين ان يدعوا الى مجالسهم الحكماء ويتخلوا لاستماع مواعظ العلماء ، وكانوا في ذلك ثلاث طبقات فمنهم طبقة لما سمعوا الوعظ نبذوا ملك الدنيا الذي يفنى ليعتاضوا عنه ملك الآخرة الذي يبقى واخرجوا ذلك من قلوبهم وأيديهم واهتموا بأمر الآخرة والعمل بها لينالوا الفوز الاكبر والنعيم الدائم ، ومنهم طبقة عند سماع المواعظ اخرجوا ملك الدنيا من قلوبهم ولم يخرجوه من أيديهم واهتموا بأمر الآخرة مع بقائهم في الملك ، وهذه الطبقة مجاهدتهم عظيمة ومثلهم في ذلك مثل من ألزم نفسه الظمأ وأمامه نهر بارد ينظر اليه ويقدر على تناوله . وهذا كان مقام الخلفاء الراشدين وأمرائهم وعمالهم ومناسك سبيلهم . ومنهم طبقة أصمهم حب الدنيا ونيل لذاتها عن استماع المواعظ واعمى أبصارهم عن كل مذكر وواعظ فآثروا اللذات عن المهمات وقطعتهم الشهوات عن أمور الديانات . وسأذكر من اخبار أهل هذه الطبقات الثلاث ما يكون فيه رياض لذوي الافكار ورياضات لذوي الابصار والله أعلم بالصواب

وهذه حكايات عظيمة

الطبقة الاولى خمس روضات

الروضة الاولى — ما حكاه أصحاب الحديث ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعمل عمير بن سعيد الانصاري رضي الله عنه على حمص واعمالها فلبث فيها سنة كاملة فجلس يوماً وعنده رجل من أصحاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان قد أتاه يستدعي منه ما اجتمع عنده من المال ، فحضر عنده رجل معاهد فجعل يتكلم ويرفع صوته . فقال له عمير اسكت أخزاك الله ، فقال له الرجل

الذي عنده، أخزاك الله من أصحاب عمر ياعمير. أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: أناولي خصم المعاهد واليتيم ومن خاصمه خاصمته، ياعمير اتق من فوقك يتقك من تحتك، وكما تحب ان يفعل الله بك فاصنع برعيتك. قال فبكى عمير بكاء شديدا ثم انثنى الى منزله فعمد الى جراب زاده ومزادته وقصعته فعلقهن على عصاه وعلقهن على عاتقه وخرج من حمص ماشياً حتى قدم على عمر رضي الله عنه فسلم عليه فرد عليه السلام متثاقلا، ثم قال له ياعمير ما الذي أدى بك من سوء الحال أمرضت بعدي أم بلادك بلاد سوء أم هذه خديعة منك؟ فقال عمير ياأمير المؤمنين ألم ينهك الله عز وجل عن التجسس؟ ثم ما الذي ترى من سوء الحال؟ ألست تراني صحيح البدن قد جئتك أحمل الدنيا؟ فقال له عمر وما الذي جئت به من الدنيا. فقال جرابي فيه زادي ومزادتي فيها ماء لشرابي ووضوئي وقصعتي لعجيني وعكازي أذب به عن نفسي. قال صدقت رحمك الله فما فعل المسلمون بعدي؟ قال تركتهم يوحدون الله ويصلون ولا تسألني عما وراء ذلك. قال فما فعل أهل الذمة؟ قال أخذنا منهم الجزية وهم صاغرون عن يد قال فما زاد من المال؟ وما أنت وذاك؟ قال اني لما قدمت حمص اجتهدت برأيي وجمعت من بها من المسلمين فاخترت منهم رجالا فاستعملتهم ثم نظرت فيما اجتمع من المال فقسمته في أهله ولو كان عندنا أكثر لأتاك. فقال ياعمير وأين راحلتك؟ قال لم يكن لي راحلة. فقال أما كان في رعيتك من يتبرع لك بدابة تركبها؟ بئس المسلمون وبئس المعاهدون. ثم قال لابنه عبد الله: جئني بصحيفة لاجدد لعمير عهداً يرجع الى عمله. فقال عمير: لا والله لا أعمل على شيء أبداً فقال عمر ولم ذلك؟ قال اني ما نجوت فاني قلت يوما لمعاهد أخزاك الله وقد قال رسول الله صلى الله عليه أناولي خصم المعاهد واليتيم ومن خاصمه خاصمته

فنهض عمر وأخذ بيد عمير. ثم أتى قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال السلام عليك يا أبا بكر، ثم بكى عمر وقال: ما ذا لقيت بعدكما اللهم الحقني بصاحبي لم أغير ولم أبدل وبكى معه عمير طويلا. ثم قال يا عمير الحق بأهلك، وكان أهله على ثلاثة فراسخ من المدينة. قال: ثم قدم بعد ذلك مال على عمر من عند بعض عماله فدعا رجلا من أصحابه اسمه حبيب فدفع اليه صرة فيها مائة دينار وقال انطلق الى منزل عمير فأقم عنده ثلاثا وتفقد حاله ثم اعطه هـذه الصرة، فأتاه حبيب فوجده في فيء بفناء داره يتفلى في الشمس فسلم عليه. فقال له عمير من أين أقبلت، قال من المدينة. قال كيف تركت عمر قال جائرا في الحكم، قال لا، فلعله وضع السوط في أهل القبلة. قال لا ولكنه ضرب ابناً له الحدفات. فقال اللهم اغفر لعمر فانه يحبك ويحب رسولك ويحب اقامة الحد. ثم أقام عنده حبيب ثلاثة أيام يقريه كل يوم قرصا مادوما بزيت فلما انقضت الثلاثة أيام. قال له عمير ارتحل عنا رحمك الله فقد أجعتنا وانك لم تصادف عندنا فضلا لكنا أثرناك. فقال له حبيب خذ هذه الصرة فان عمر بعثها اليك، فلما صارت في يده قال: صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم ابتل بشيء من الدنيا، وصحبت أبا بكر كذلك. ثم صحبت عمر فشر أيامي يوم صحبت عمر، وبكى فقالت له امرأته لاتبك رحمك الله ضعها حيث شئت قال صدقت فاطرحي لي بعض خلقانك، قال ففعلت فجعل يصر الدينار والدينارين والثلاثة دنانير والاربعة وفرق ذلك حتى قسمها في فقراء جيرانه وعاد حبيب الى عمر فأخبره بخبره فارتاع لذلك ولبث أياما واستدعى عميرا. وقال له ما صنعت بالدنانير، فقال أقرضتها ربي الى يوم فقري. قال هل عليك دين، قال لا فأمر عمر رضي الله عنه له بوقر بعير تمرا وثوبين. فقال أما الثوبان فأقبلهما وأما

التمر فلا حاجة لي به فاني قد تركت عند أهلي صاعا من الشعير وهو مبلغهم الي ، ثم انصرف عمير الى أهله فقيل ما لبث قليلا وتوفي رحمة الله تعالى عليه فجزع له عمر وقال لاصحابه: تمنوا فتمنوا فقال: لكني أتمنى رجالا استعين بهم على أمور المسلمين .

الروضة الثانية — ما حكاه الاصمعي . قال ركب النعمان بن امرء القيس ابن عمر الاكبر حتى أشرف على الخرنوق وهو الذي بناه . فلما نظر الى ماحواليه وكان في فصل الربيع و رونقه . وقد أخذت الارض زينتها فسرح طرفه مليا فيما حوله وكان معجبا بالشقائق التي يقال لها شقائق النعمان . ومن أجل اعجابه بها وتتبعه لها في الرياض نسبت اليه . قال وكان هناك روضة شقائق فلما تأملها ونظر حسن نضد الشقيق في منابته وقنوحمرته وخضرة سوقه وتمايسه مع هبوب النسيم عليه ارتاح قلبه اليه فأمر ان يبسط له بساط منسوج من الحرير المخمل على هيئة الروضة فكان كانه روضة مختلفة بانواع النوار وضرب عليه قبة من الديباج الاحمر منضودة من الحشايا بمايضاهيها ويجانسها في لونها ولبس من الثياب الحرير أفضل وأفخر ما عنده ثم جلس في تلك القبة مواجها لتلك الروضة وعنده أكابر قواده وخواص مملكته ووجهاء رعيته وفيهم عدي بن زيد ، قال فاعجب الملك بما هو فيه فقال لجلسائه هل رأيتم مثل مالنا فيه أو علمتم ان احداً أوتي مثل مااوتيت ؟ قالوا لا أيها الملك ما رأينا مثلك ، وعدى لم ينطق فنظر اليه الملك مستدعياً لكلامه ، فقال أيها الملك ارأيت ماجمعت أشيء هو لك لم يزل أو شيء كان لمن قبلك وزال عنهم . وصار لك ؟ قال بلى كان لمن كان قبلي ثم صار اليّ ، قال فيزول عنك الى غيرك أم يبقى ؟ قال يزول عني ويبقى الى غيري ، قال فاراك أيها الملك مررت بشيء يذهب

عنك الى غيرك وتبقى عليك تبعته، تكنال منه قليلاً وتوهن فيه طويلاً قال فبكى النعمان وقال له : ياعدي فاين المهرب ؟ قال احد امرين الاول أن تقيم في ملكك تعمل بطاعة ربك على ماأمرك وأرشدك ،والثاني أن تضع تاجك وتخلع اطمارك وتلبس مسوحا ثم تلحق ببعض الجبال وحدك تعبد فيه ربك حتى يأتيك اليقين ، قال فاذا فعلت ذلك فمالي عنده ؟أحياة لاموت بها وشباب لاهرم بعده وصحة لا سقم بهاوملك جديد لا يبلى ؟قال نعم ،قال وكلما اراه الى فناء وزوال؟ قال نعم،قال فاي خير فيما يفني ويزول؟ ثم انه ركب هو ومن معه من موضعه وسار طالباً قصره والى جانبه عدى بن زيد فأتوا الى مقبرة فقال عدى: اتدري ماتقول هذه المقبرة أيها الملك ؟ قال لا،قال انها تقول أيها الركب اللاهون على الارض المجدون، كما كنتم كنا وكما نحن تصيرون ، قال ثم ساروا فمروا بحمامات متناوحات عند عين جارية فقال عدى أيها الملك أتدري ماتقول هذه الحمائم؟ قال لا،قال تقول

من رآنا فليحدث نفسه — انه سوف على قرب زوال
وصروف الدهر لاتبقي له — ولما تأتي به صم الجبال
رب ركب قد أناخوا حولنا — يشربون الخمر بالماء الزلال
عمروا دهرا بعيش حسن — غرهم دهر بهم غير عجال
بعد هذا عبث الدهر بهم — ولذاك الدهر حال بعد حال

فلما انتهى الملك الى قصره التفت الى عدي وقال: قد علمت ان المقبرة والحمائم لاتتكلم وانما قصدت بذلك عظتي وقد حصلت الموعظة ، فاذا كان السحر فاحضر عنـدي فان عندي خبرا سأطلعك عليه ، فلما حضر عنده عدي وجده قد

لبس مسوح الشعر وأخذ أهبة السياحة فودع عديا ثم ارتقى الى الجبل فلم يزل هنالك يعبد الله حتى لحق به رحمه الله

الروضة الثالثة — روى نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال كان فيما سلف ملك دان له الناس فأعجب بملكه . وقال لوزرائه وقهارمته ابنوا لي دارا لا يكون فيها عيب، ففعلوا ذلك . قال اتخذوا لي طعاما لا يكون فيه عيب، ففعلوا ذلك، فامر ان يدعى الناس الى طعامه في تلك الدار ثم أمر باقامة رجلين بالباب وأمرهما ان يسألا كل واحد يخرج من الدار هل رأى فيها عيبا أو في الطعام . قال فمر بهما رجلان عليهما ثياب الشعر فسألاهما فقالا نعم رأينا في الدار عيبين قبيحين . قالوا وما هما؟ قالا رأينا الدار تخرب وصاحبها يموت، فمضيا وأخبرا الملك بما قالا فاحضرهما وسألهما فذكرا له ذلك، فأطرق الملك ساعة ثم قال لهما أتعرفان دارا لا تخرب ولا يموت صاحبها؟ قالا نعم، قال وأين هي؟ فقالا هي دار الله تعالى ربنا وربك وهي الجنة التي يدوم نعيمها ولا يزول ملكها . قال فصفاها لي فوصفاها له، قال وبأي شيء تنال هذه الدار؟ قالا بعبادة الله والانقطاع اليه . قال وكيف تكون العبادة؟ فشرعا له الدين فوقع في قلبه ان ذلك هو الحق، فقال لهما أقيما عندي في هذه الليلة حتى انظر فيما ذكرتماه لي، فان أقمت في ملكي جعلتكما وزيرين لا أعصيكما واذا خرجت منه تبعتكما على أمركما . ثم قام فدخل على ابنة له وكانت عاقلة فهيمة فقص حكايته عليها وهو ما ذكراه له وأخبرها انه تارك ملكه وخارج معهما، فقالت يا أبت انج بنفسك وخذني معك . قال يا بنيتي انت عورة فكيف اصنع بك؟ فقالت اني أخفي شخصي فلا يعلم أحد أذكر أنا أم أنثى . قال فاخلعي ثيابك واخرجي . ففعلت ذلك وخرجت مع أبيها الى الرجلين فقال لهما سيرا بنا مادام ظلام الليل ساجيا وهذا ولدي معي فساروا حتى

قطعوا المدينة وخرجوا منها ثم ساروا حتى جاوزوا مملكة ذلك الملك. ثم ساروا حتى بلغوا ديرا فقالا له: هذا موضعنا الذي نعبد ربنا فيه، فدخلوا اليه جميعاً فأقام عندهما مدة طويلة يتعلم منهما الدين وأحكام الشريعة، ثم تجهز للخروج عنهما فقالوا له ماشأنك؟ هل أذاك أحد منا، قال لا ولكني أراكما تكرمانني لما كنت فيه من الملك فأريد ان آتي موضعاً لا أعرف فيه فأكون في غمار الناس فتركاه ومضى حتى أتى ديرا كبيرا كثير الاهل فيه مساكن كثيرة فقال هل من منزل فقيل له ادخل فدخل واختار منزلا فكان هو وابنته يعبدان الله تعالى فيه، وكان لاهل ذلك الدير مزرعة وكل لكل رجل من سكان الدير حراستها سنة كاملة فبلغت النوبة الى الشيخ وكان مريضا فقيل له ذلك، فقال ان عذري واضح. فقالت له ابنته أنا أخرج عنك، فخرجت الى المزرعة فما كان يراها الناس الا قائمة تصلي وفي أمرهي به مغتبطة. قال وكان يقربهم دير صغير ينسب الى رجل له ابنة جميلة فجاءت تلك الابنة فاتصلت بها وهي تظن أنها غلام فجعلت تعرض عليها نفسها وهي تعتصم من شرها فلما رأت الجارية أنها لا تفعل قالت والله لاهلكنك واهلكن أباك، ثم انها ذهبت الى راع فمكنته من نفسها فحملت، فلما عظم بطنها قال لها أبوها ما هذا؟ قالت اني كنت عند ولد الشيخ مطمئنة اليه لما رأيت من كثرة عبادته واجتهاده وكان هذا منه فجاء أبوها وأهل ديره فأخبروا أهل ذلك الدير الكبير بذلك. وقالوا لا ينبغي ان يكون هذا الشيخ وولده عندكم، وهموا على اخراجه الا انه لشدة مرضه لم يقدروا على ذلك، ثم توفي الشيخ بمكانه فلم يأخذوا في جهازه فقال علماؤهم انه لا ذنب له فاغسلوه وكفنوه واطردوا ابنه فلا يدخل ديركم، ففعلوا ذلك. فقالت الفتاة دعوني أبن لي بيتا في الصحراء أحرس نفسي فيه من السباع، فبنت لها بيتا فكانت

تعبد الله تعالى وتزور قبر أبيها ،حتى اذا كانت ليلة من الليالي مر بها رجل من أهل الدير فاذا باب بيتها مفتوح. فناداه يافتى فأجابته بصوت خافت. فقال أحسبك مريضاً ؟ قال نعم قال فهل لك حاجة ؟ قال نعم اذا أنامت فلا تكشفوني ولا تنزعوني من ثيابي وغسلوني فيها وادفنوني في قبر أبي فقد حفرت الى جانبه قبراً ثم أصبحوا فسمعوا قائلاً يقول مات ابن الشيخ، فقال الرجل الذي كان أوصاه انه أوصاني بكذا وكذا ، فقال علماؤهم لا تغيروا سنتنا ابعثوا اليه رجلا يغسله مجردا من ثيابه ثم كفنوه وادفنوه الى جانب قبر أبيه كما أوصى ، فلما جاء الرجل وكشف عنه ليغسله فوجدها امرأة فغطوها وتنادوا في الديوان، الذي طردتموه انما هو امرأة فبعثوا اليها النساء وغسلوها فلما جهزوها حضر الى الصلاة عليها جميع من في تلك الارض، ثم دفنوها الى جانب قبر أبيها، قال :قال عبدالله ابن عمر فلقد كان أهل تلك الناحية اذا قحطوا جاءوا الى قبر أبيها وقبرها فاستسقوا الله تعالى فيسقون والله سبحانه وتعالى أعلم

(الروضة الرابعة) حكي ان ملكا من اليونان قام من منامه في بعض الغدوات فأتته القيمة على ثيابه بملبوس ثم ناولته المرآة فنظر الى وجهه فوجد في لحيته شعرة بيضاء فقال لها هاتي المقراض ؟فأتته به فقصها فتناولتها الجارية وكانت حكيمة لبيبة عاقلة فوضعتها في كفها وأصغت اليها بأذنها والملك ينظر اليها فقال ماهذا الذي تصغين اليه؟قالت أستمع ما تقول هذه الشعرة التي عظم مصابها بمفارقة الكرامة لما سخط عليها الملك فاقتصها، فقال الملك وما الذي سمعت من قولها ؟قالت زعم قلبي انه سمعها تقول كلاما لا يجترئ عليه لساني خوفا من سطوة الملك، فقال لها الملك قولي ماشئت آمنة ان لزمت قانون الحكمة ،قالت انها تقول أيها الغائش الى أمد قصير اني قد علمت منك البطش بي والاعتداء علي اذا ظهرت ظاهر بشرتك

فلم أظهر في وقتي هذا حتى عهدت الى اخواتي من بعدي في الاخذ بثاري منك اما باستئصالك واما بتنغيص لذتك وتنقيص قوتك حتى تعد الموت راحة لك، فقال لها الملك اكتبي كلامك، فكتبته في لوح فجعل يتدبره ساعة ثم نهض مبادراً فأتى هيكلا من هياكلهم فنزع عنه تاجه وثياب الملوك وتزيا بزي النساك وبلغ ذلك أهله وأهل مملكته فطلبوه وسألوه بان يعود الى ملكه وتدبيره، فامتنع منهم وسالهم اقالته وتمليك غيره فامتنعوا عليه وهموا بأخذه قهرا فاصطلح أهل الهيكل معهم على ان يتركوه يعبد ربه ويستنيب غيره فيما استناب في مثله من الامور ويلي هو غير ذلك من الامور العظام بنفسه مع اقامته في الهيكل، فلبث على هذا الامر حتى قبضه الله اليه رحمة الله عليه

(الروضة الخامسة) — حكى أبو عبد الله محمد بن أبي محمد ظفر الحجازي رحمه الله تعالى ان ملكا من ملوك الزمان كان كافراً عتياً متكبراً حديث السن مستحكم العزة وكان له وزير مؤمن بالله تعالى قد أدرك بعض حواري المسيح وهو يكتم ايمانه ويتحرى وقتاً يمكن فيه دعوة الملك الى الله تعالى، فركب الملك يوماً فسمع شيخاً رافعاً صوته لبعض شانه، فقال للاعوان خذوه، فلما أخذوا ذلك الشيخ قال ان ربي الله فقال الوزير تخلوا عنه، فخلى عنه الاعوان فاشتد غضب الملك على الوزير ولم يمكنه الانكار عليه في ذلك المقام، فسكت ليوهم الناس انما فعل ذلك الوزير بأمره، فلما عاد الملك الى قصره أحضر الوزير وقال له ما دعاك الى مناقضة أمري بمشهد من عبيدي؟ فقال له الوزير ان لم يعجل علي الملك أريه وجه نصحي له وشفقتي عليه فيما أتيته، فقال الملك أرني ذلك فاني لا اعجل عليك، فقال الوزير أسأل الملك ان يختبىء في مجلسه هذا خلف حجاب فيكون بحيث يسمع ويرى ما يكون مني، فقعد الملك كذلك، ثم ان الوزير أحضر قوسا جيدة

صنعها للملك بعض خدمه وكتب الصانع اسمه عليها فاعطى القوس غلاماً وقال له احضر صانع هذا القوس فاذا حضروا حادثته فاقرأ انت اسم صاحب القوس جهراً حتى تعلم انه قد سمعك ثم اكسرها وهو ينظر اليك. فحضر القواس وفعل الغلام ما أمره به الوزير فلما كسر القوس لم يتمالك صانعها ان ضرب الغلام فشجه فقال الوزير اتضرب غلامي بحضرتي؟ قال نعم لانه كسر القوس التي هي صنعتي وعملي وهي في نهاية الجودة والحسن فلأي شيء كسرها وهو يعلم انها صنعتي؟ قال الوزير فلعله ما علم انها صنعتك؟ قال بلى ان القوس أخبره انه صنعتي، قال الوزير أرأيت قوساً يخبر؟ قال نعم ان اسمي مكتوب عليه وقرأه وانا أسمع، ثم ان الوزير صرف الصانع والغلام، ثم قال للملك قد أوضحت لك نصحي واشفاقي عليك وذلك انك لما أردت البطش بالشيخ أخبرك ان الله ربه فخفت عليك من ربه أن يغضب كما غضب هذا القواس لقوسه. فقال له الملك وهل للشيخ رب غيري؟ قال له الوزير الم ير الملك من الرجل شيخاً كبيرا والملك شاب؛ فهل كان قبل أن يولد الملك لارب له؟ فقال له ان أبي كان ربه فقال له الوزير فما بال الرب هلك والمربوب باقٍ؟ فسكت الملك ساعة وقال الآن علمت ان للملك والمملوك رباً لا يزول فهل تعرفه؟ فقال الوزير نعم أعرفه قال فصفه ودلني عليه؟ فشرع الوزير يشرح له صفات الخالق وأوضح له الدلالة على ذلك فانشرح صدر الملك للايمان فآمن بالله تعالى، فلما رسخ في قلبه التوحيد قال: أما لربنا خدمة فنتقرب بها اليه؟ قال انه غني عن كل شيء، قال فما أمرنا بشيء اذا فعلناه حظينا به عنده؟ قال بلى ان له وظائف أمرنا بها ورضي لنا فعلها ووعدنا عليها رضوانه والقرب منه، فسأله عنها؟ فذكرها له وهي الصلاة والصيام وغيرها من شرائع المسيح عليه السلام فعرفها الملك وراض نفسه بها حتى صارت له طبعاً، ثم قال يوماً للوزير: مالك لا تدعو الناس الى الله تعالى كما دعوتني

فقال امة ذات قلوب قاسية وفهوم قاصية ونفوس عاصية ولست آمنهم على نفسي فقال الملك أنا افعله ان لم تفعله أنت ، فقال الوزير ليعلم الملك انهم ان لم تذدهم هيبته عني لا آمنهم على نفسي وسادعوهم الى الاله فان اجترأوا بالقتل علي فلا يعفهم الملك ، ثم ان الوزير أحضر وجوه أهل تلك المملكة وولاة أحكام رعاياه وأفاضلها ، فلما اجتمعوا في منزله قام فيهم خطيباً بالدعوة الى التوحيد فتواثبوا عليه فقتلوه ، ثم أتوا الى الملك فاخبروه بما كان من وزيره ، فأظهر لهم الرضى بقتله فانقلبوا عنه راضين ، ثم ان الملك ضاق صدره على وزيره فلما كان الليل لبس مسوح الشعر والتحق بالركبان ونبذ ما كان فيه من الملك ولم يزل يعبد الله تعالى حتى قضى نحبه رحمة الله عليه وعلى المسلمين أجمعين آمين

حكاية الطبقة الثانية

وهي خمس روضات

(الروضة الاولى) — حكى مالك بن أنس رضي الله عنه ان عمر بن عبد العزيز رضي الله لما ولي الخلافة دخل عليه محمد بن كعب وعنده هشام ابن مصاد وقد وعظه فأبكاه ، فقال له محمد ما ابكاك يا أمير المؤمنين؟ قال ابكاني هشام حين ذكرني وقوفي بين يدي ربي ، فقال له محمد يا أمير المؤمنين انما الدنيا سوق من الاسواق منها خرج الناس بما نفعهم ومنها خرجوا بما ضرهم ، فلا تكن من قوم قد غرهم منها مثل الذي اصبحنا فيه حتى أتاهم الموت فاستوعبهم منها فخرجوا منها ملومين لم يأخذوا لما أحبوا من الآخرة عدة ولا لما كرهوا جنة فاقتسم فيما جمعوا من لا يحمدهم وصاروا الى من لا يعذرهم ، فانظر يا أمير المؤمنين الى تلك الاعمال التي تتخوف منها فكف عنها ، وانظر الى الذي تحب أن يكون معك اذا قدمت على ربك فاصنع منه ، وابذل حيث يوجد البذل

ولا تذهبن الى سلعة قد بارت على من كان قبلك ترجو أن تروج معك، فاتق الله تعالى يا أمير المؤمنين وافتح الباب وسهل الحجاب وانصر المظلوم واردع الظالم، يا أمير المؤمنين ثلاث من كن فيه فقد استكمل الايمان، من اذا رضي لم يدخله رضاه في الباطل واذا غضب لم يخرجه غضبه من الحق واذا قدر لم يتناول ماليس له، قال فاشتد بكاء عمر بن عبد العزيز وعلا نحيبه وقال: اللهم اعني على ما أبليتني به من أمر عبادك وبلادك وارزقني فيهم العمل بطاعتك واختم لي بخير منك وعافية والمسلمين أجمعين

(الروضة الثانية) حكي ان سليمان بن عبد الملك لما قدم المدينة اقام بها ثلاثا فقال ماهاهنا رجل أدرك الصحابه يحدثنا؟ فقيل له ان هاهنا رجلا عابدا من التابعين اسمه أبو حازم أدرك جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ونقل عنهم الاحاديث، فبعث اليه فلما جاءه واستقر به المجلس، قال له سليمان يا ابا حازم مالنا نكره الموت؟ قال لانكم اخربتم آخرتكم وعمرتم دنياكم فانتم تكرهون النقلة من العمران الى الخراب، قال صدقت يا اباحازم فكيف القدوم على الله تعالى؟ فقال اما المحسن فكالغائب يقدم على اهله واما المسيء فكالعبد الابق يقدم على مولاه، قال فبكى سليمان وقال ليت شعري مالنا عند الله يا أبا حازم؟ فقال اعرض نفسك على كتاب الله تعالى فانك تعلم مالك وما عليك، قال واين اصيب ذلك من كتاب الله تعالى؟ قال عند قوله تعالى - ان الابرار لفي نعيم وان الفجار لفي جحيم - قال يا ابا حازم أين رحمة الله تعالى؟ قال قريب من المحسنين، قال فبكا سليمان ثم أطرق ساعة ثم رفع رأسه اليه وقال: يا اباحازم من اعقل الناس؟ قال من تعلم الحكمة وعلمها الناس، قال من احمق الناس؟ قال من دخل في هوى رجل ظالم فباع آخرته بدنيا غيره، قال فما تقول فيما نحن فيه؟ قال اعفني من ذلك، فقال انما هي نصيحة بلغتها، فقال ان

ناساً اخذواهذا الامر من غير مشورة من المسلمين ولا اجماع من رأيهم فسفكوا الدماء على طلب الدنيا ثم ارتحلوا عنها فليت شعري ما قالوا وما قيل لهم ؟ فقال رجل من جلسائه : بئس ما قلت ياشيخ ، قال ابو حازم كذبت والله ياجليس السوء ان الله تعالى اخذ الميثاق على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه ، فقال سليمان ياابا حازم كيف لنا على الصلاح ؟ قال تدعو التكلف وتمسك بالحقيقة ، قال فكيف طريق الماخذ لذلك قال تأخذ المال من حله وتضعه في اهله ، قال ومن يقدر على ذلك ؟ قال من قلده الله تعالى من الارض ما قلدك ، قال افترى ياابا حازم ان تصيب منا ونصيب منك ؟ قال أعوذ بالله من ذلك ، قال ولم ؟ قال أخاف ان أركن اليكم شيئاً قليلا فيذيقني ضعف الحياة وضعف الممات ، قال يا أبا حازم فدلني على ما أصنع ؟ قال اتق الله تعالى ان يراك حيث نهاك و يفقدك حيث أمرك قال ادع لنا يا أبا حازم ، قال اللهم ان كان سليمان وليك فيسره لخير الدنيا والآخرة وان كان عدوك فخذ بناصيته الى فعل الخير وأصلحه في الدنيا والآخرة ، فقال سليمان ياغلام اعط أبا حازم مائة دينار ليقضي بها دينه فقال ، لاحاجة لي بها اني أخاف ان تكون عوضاً من كلامي فيكون أكل الميتة أحب اليّ من أخذها ، ثم نهض فخرج من عنده . فلما كان من الغد بعث اليه فاحضره فلما ان دخل عليه قال يا أبا حازم أعظنا عظة ننتفع بها ؟ فقال ان هذا الامر لم يحصل اليك الا بموت من كان قبلك وهو خارج عن يدك مثل ما صار اليك ، فبكا سليمان وكاد يسقط عن جنبه ، فلما أفاق قال سليمان ارفع اليّ حوائجك يا أباحازم قال هيهات اني قد رفعتها الى من لا تحجب دونه الحوائج فما أعطاني منها قنعت وما منعني منها رضيت وذلك اني نظرت الى هذا الحال وهذا الامر فاذا هو على قسمين أحدهما لي والآخر لغيري ، اماما كان لي فلو احتلت فيه بكل حيلة

ماوصلت اليه قبل أوانه الذي قدر لي فيه، وأما الذي لغيري فذاك لاطمع لي فيه وكما منع غيري من رزقي كذلك منعت أنا من رزق غيري . وانصرف فما برح سليمان بعد ذلك مستضعفاً حتى مات

(الروضة الثالثة) حكى أبو القاسم عبد العزيز بن حسن باسناده ان أمير المؤمنين المنصور بعث الى الاوزاعي وهو بالساحل فاحضر عنده، فلما استقر به المجلس قال له المنصور ما الذي أبطأ بك عنا يا أوزاعي؟ قال وما الذى تريد مني يا أمير المؤمنين؟ قال أريد الاخذ عنك والاقتباس منك ، قال يا أمير المؤمنين انك لاتجهل شيئاً مما أقول لك ، قال وكيف لا أجهله وأنا أسأل عنه ؟ قال يا أمير المؤمنين انك تسمعه ولاتعمل به، قال فصاح به الربيع وأهوى بيده الى السيف فانتهره المنصور وقال هذا مجلس مثوبة لامجلس عقوبة ، قال فصاح الاوزاعي رحمه الله تعالى يا أمير المؤمنين حدثنا مكحول ابن عطية قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — أي عبد جاءته موعظة من الله في دينه فانها نعمة من الله تعالى سيقت اليه فان قبلها شكره والا كانت حجة من الله عليه ليزداد بها اثما ويزاد بها عليه سخطاً — وقد بلغني ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أيما وال بات غاشا لرعيته حرم الله عليه الجنة . يا أمير المؤمنين من كره الحق فقد كره الله تعالى لان الله هو الحق المبين، يا أمير المؤمنين ان الذي لين لك قلوب الامة حتى ولاك أمورهم لقرابتك من نبيه صلى الله عليه وسلم لحقيق ان تقوم له فيهم بالحق وان تقوم فيهم بالقسط قائماً ولعوراتهم ساترا فلا تغلق عليهم وعليك الباب ولا تقم عليك دونهم الحجاب وابتهج بالنعمة عندهم وتأذى لما أصابهم من مكروه يا أمير المؤمنين لقد كنت في شغل شاغل من خاصة نفسك عن عامة الناس الذين أصبح أحمرهم وأسودهم ومسلمهم وكافرهم وكل له عليك نصيب من العدل فكيف

اذا بعثك الله يوم القيامة وليس منهم أحد الا وهو يشكوك الى ربه من بلية أدخلتها عليه أو ظلومة سقتها اليه؟ يا أمير المؤمنين حدثني مكحول قال: كانت بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم جريدة يستاك بها ويروع بها المنافقين فأتاه جبريل عليه السلام فقال يا محمد ما هذه الجريدة التي كسرت بها قلوب أمتك وملأت نفوسهم بها رعباً؟ فكيف بمن شق استارهم وسفك دماءهم وخرب ديارهم وأخذ أموالهم وأخلاهم عن بلادهم وأذاقهم الخوف؟ يا أمير المؤمنين حدثني مكحول عن ابن زياد بن حارثة عن حبيب بن سلمة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الى القصاص من نفسه في خدش خدشه اعرابياً لم يتعمده اذ أتاه جبريل عليه السلام: فقال يا محمد ان الله تعالى لم يبعثك جبارا ولا متكبرا، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الاعرابي فقال: اقتص مني، فقال الاعرابي قد أحللتك يارسول الله بأبي أنت وأمي وما كنت لافعل ذلك أبداً، فدعا له رسول الله صلى الله عليه بالخير، يا أمير المؤمنين رض نفسك بنفسك وخذلها الآمال من ربك وارغب في جنة عرضها السموات والارض التي يقول فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقيد قوس أحدكم من الجنة خير من الدنيا ومافيها، يا أمير المؤمنين ان الملك لو بقي لمن كان قبلك لم يصل اليك وكذا لا يبقى لك كما لم يبق لغيرك يا أمير المؤمنين ان الملك لو بقي لاحد مابقي لاحد، يا أمير المؤمنين أتدري ماجاء عن جدك عبد الله بن العباس رضي الله عنهما في تأويل آية «يا داود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله» قال يا داود اذا قعد الخصمان بين يديك وكان لك في أحدهما هوى فلا تمنِّ نفسك ان يكون الحق له فيفلح على صاحبه فأمحك من نبوتي، يا داود انما جعلت رسلي الى عبادي رعاة كرعاة الابل الذي يجبرون الكسير ويدلون الهزيل على

الكلا والماء، ياأمير المؤمنين انك قد بليت بأمر لو عرض على السموات والارض والجبال لأبين ان يحملنه وأشفقن منه، وقدحدثني يزيد ابن جابر عن عبد الرحمن ابن عمرة الانصاري ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعمل رجلا من الانصار على الصدقة فرآه في بعض أيام مقيما، فقال مامنعك من الخروج الى عملك؟ أماعلمت ان لك فيه مثل أجر المجاهدين في سبيل الله؟ قال لا، قال، كيف ذلك قال لانه بلغني ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: مامن وال يلي شيئاً من أمور المسلمين الا أتي يوم القيامة مغلولة يداه الى عنقه فيوقف على جسر من نار فينتفض به الجسر انتفاضاً يزيل به كل عضو منه من موضعه ثم يعاد فيحاسب فاذا كان محسناً نجا باحسانه وان كان مسيئاً تخرق به ذلك الجسر فهوي في النار سبعين خريفاً، فقال له عمر ممن سمعت هذا؟ قال من أبي ذر وسلمان، فارسل اليهما عمر رضي الله عنه وسألهما عن ذلك؟ فقالا نعم سمعناه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكا عمر رضي الله عنه وقال واعمراه من يتولاها بما فيها؟ فقال أبو ذر من جدع الله أنفه وألصق خده بالارض، قال فبكى المنصور وأخذ المنديل فوضعه على وجهه وجعل ينتحب في بكائه حتى أبكى الحاضرين فامسك الاوزاعي ساعة، ثم قال يا أمير المؤمنين ان جدك العباس سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم امارة على مكة والطائف واليمن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ياعم النبي نفس تحييها خير لك من امارة لاتحصيها، وهذه النصيحة منه نعمه وشفقة عليه. ياامير المؤمنين بلغني ان عمر ابن الخطاب رضي الله عنه قال: بلغني ان الامراء أربعة أمير ظلم نفسه وعماله فذاك كالمجاهد في سبيل الله تعالى يد الله باسطة عليه بالرحمة، وامير فيه ضعف ظلم نفسه وارتع عماله لضعفه فهو على شفا هلاك الى ان يرحمه الله تعالى، وامير كلف عماله وارتع نفسه فاهلك نفسه فلذلك هو الحطمة الذي قال رسول الله صلى

الله عليه وسلم شر الرعاة الحطمة الهالك وحده، وامير ارتع نفسه وعماله فهلكوا جميعاً . ياامير المؤمنين بلغني ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال ، اللهم انك تعلم اني ابالي اذا قعد الخصمان بين يدي بمن مال الحق معه من قريب أو بعيد فلا تمهلني طرفة عين. ياأمير المؤمنين ان اشد الشدة القيام لله بحقه وان أكرم الكرم عند الله التقوى وان من طلب العزة بطاعة الله رفعه الله وأعزه ومن طلبها بمعصية الله وضعه الله تعالى وأذله ،وهذه نصيحتي اليك والسلام عليك ورحمة الله. قال فلما سكن عن منصور البكاء رفع رأسه اليه وقال ياأوزاعي قد قلت وانت غير متهم في نصحك وقد سمعناه منك وصادف قبولا ان شاء الله تعالى والله الموفق للخير والمعين عليه، يا ربيع ادفع الى الاوزاعي مايستعين به على زمانه. قال ياامير المؤمنين اني غني عن ذلك وما كنت لابيع نصيحتي بشيء من عرض الدنيا . ثم انه ودع المنصور وانصرف الى حال سبيله

الروضة الرابعة — حكى ابن عبد ربه قال قدم أمير المؤمنين المنصور مكة حاجا فنزل في دار الندوة وكان يخرج في آخر الليل الى الطواف فيطوف ويصلي ولا يعلم به أحد من الناس ،فاذا طلع الفجر رجع الى دار الندوة وجاء المؤذنون فسلموا عليه ثم تقام الصلاة فيصلي بالناس ،قال فخرج ذات ليلة حين أسحر فبينما هو يطوف اذ سمع رجلا عند الكعبة وهو يقول، اللهم اني أشكو اليك ظهور البغي والفساد وما يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع ،قال: فاسرع المنصور في مشيه حتى ملأ مسامعه من قوله فرجع فجلس ناحية من المسجد وأرسل اليه فدعاه فلما حضر قال له المنصور : ما هذا الذي سمعتك تقول من ظهور البغي والفساد في الارض وما يحول بين الحق وأهله من الظلامة والطمع ، فقال الرجل ان أمنتني على نفسي أنبأتك بالامور ،قال له المنصور أنت آمن على نفسك ،فقال الرجل

يا أمير المؤمنين ان الله تعالى استرعاك أموال خلقه فجعلت بينك و بينهم حجاباً من الجص والآجر وأبواباً من الحديد وحجبة مع السلاح ، ثم سجنت نفسك فيها و بعثت عمالك في جمع أموالهم واتخذت و زراء ظلمة وأعواناً غشمة ان نسيت لم يذكروك وان أحسنت لم يعينوك ، ثم قويتهم على ظلم الناس بالاموال والكراع والسلاح وأمرت ان لا يدخل الا فلان وفلان نفر سميتهم ولم تأمر بادخال المظلوم ولا الملهوف ولا الجائع ولا العاري ولا الضعيف ، فلما راك هؤلاء النفر قد استخدمتهم لنفسك وا ثرتهم على رعيتك قالوا هذا خان الله تعالى فما لنا لا نخونه وقد خان الله تعالى ، فاضمروا على ان لا يوصلوا اليك من أخبار رعيتك الا ما أرادوا ومتى أخرجت عاملا نخالفهم في أمر أقصوه وأبعدوه و بلغوك عنه المكروه حتى يسقط من عينك ، فلما اشتهر ذلك عنهم أعظمهم الناس وهابوهم وكان أول من صانعهم بالهدايا والاموال عمالك القائمين على البلاد ليتفقوا على ظلم الرعية ، ثم فعل ذلك أهل القدرة والثروة من رعيتك لينالوا ظلم من هو دونهم من الرعية ، فامتلأت بلاد الله بالطمع بغياً وفساداً من هؤلاء القوم شركائك في سلطانك وأنت غافل فان جاء متكلم حيل بينه و بين الدخول عليك ، وان أراد رفع قصة اليك عند ظهورك لم يأخذها أحد وان أخذها لم يوصلها اليك ، واذا استغاث بك مظلوم بأعلا صوته ضربوه ضرباً شديداً ، فما بقي من الاسلام بعد ذلك ؟ وقد كانت بنو أمية لا ينتهي اليهم المظلوم الا رفعت ظلامته وكان الرجل يأتي من أقصى البلاد حتى يبلغ سلطانهم فينادي بأعلى صوته . يا أهل الاسلام . فيبتدرون اليه و يقولون مالك فيرفعون ظلامته الى سلطانهم فينصف بينه و بين ظالمه ، ولقد رأيتم ما تركوا بعدهم من الاموال ولم تنفعهم ، ولقد كنت يا أمير المؤمنين اسافر الى بلاد الصين وبها ملك قد ذهب سمعه فجعل يبكي فقال له وزراؤه لا بكت عيناك أيها الملك مم

بكاؤك؟ فقال لست أبكي نزول البلية بي وانما أبكي لان المظلوم يقف بالباب يصرخ فلا أسمعه، ثم قال، لئن ذهب سمعي فما ذهب بصري ، نادوا في الناس لا يلبس ثوباً أحمر الا المظلوم .وكان يركب كل يوم فيله ويخرج لعله يرى مظلوما فينصفه، هـذا يا أمير المؤمنين وهو مشرك بالله تعالى وغلبت عليه الرأفة على المشركين وأنت مؤمن بالله تعالى وابن عم نبيه لا تغلبنك رأفتك على المسلمين فما تقول اذا نزع الله منك ملك الدنيا ودعاك الى الحساب غدا؟ هل ينفعك الندم اذا زلت بك القدم؟ قال فبكى المنصور وأعلن النحيب ثم قال : ياليتني لم أخلق وقال كيف احتيالي ولم أر من الناس الا جانياً ؟ ثم قال الرجل يا أمير المؤمنين عليك بالائمة المرشدين .قال ومن هم ؟ قال العلماء ، قال فقد فروا عني وهربوا مني قال انما فروا عنك وهربوا منك مخافة ان يحملهم على ما ظهر منك من قبل عمالك ،ولكن افتح الباب وسهل الجواب وانصر المظلوم وخذ المال من حله وقسمه في أهله وأنا ضامن لك ان من هرب منك يعود اليك ويعاونك على صلاح أمرك فقال المنصور: اللهم وفقني ان أعمل بما قال هذا الرجل ، ثم جاء المؤذنون فسلموا عليه وأقيمت الصلاة فجعل يصلي بالناس وقال للحرسي عليك بحفظ هذا الرجل حتى أفرغ من الصلاة ؛ قال فلما فرغت الصلاة التفت الى الحرسي يطلب الرجل في موضعه فلم يره فأمر المنصور به فلم يره فاشتد غضبه على الحرسي وقال لئن لم تأتني به لاضربن عنقك فخرج الحرسي يطوف عليه واذا به في بعض الشعاب قائم يصلي الضحى فقال أجب أمير المؤمنين ، فقال ليس الى ذلك سبيل ، فقال انه عزم ليضربن عنقي ان لم آته بك؟ قال انه لن يقدر على ذلك ، ثم أخرج من جيبه رقعة مكتوبة وقال اجعل هذه في جيبك فان فيها دعاء الفرج فانه اذا رآك ذهب غيظه وخشع قلبه وأوصل اليك مايسرك . فقال له الحرسي يرحمك الله فما دعاء

الفرج، قال من دعا به صباحا ومساء ذهبت ذنوبه ودام سروره وبسط الله له في رزقه وأعانه على عدوه وكان آمنا من ظلم الجبارين ولا يموت الا شهيدا. قال الحرسي: وكأنه كان بعض ملح وذاب فلم أر له أثرا فرجع الحرسي الى المنصور فلما دخل عليه نظر اليه وتبسم وقال ويحك أتحسن السحر؟ قال لا والله يا أمير المؤمنين ولكني وجدته وكان من حديثه كذا وكذا. فقال ادفع الي الرقعة، فدفعها اليه فنظر فيها وجعل يبكي. ثم أمر بنسخها وأمر للحرسي بعشرة آلاف درهم. وقال أتعرفون من كان الرجل؟ قال الحاضرون لا يا أمير المؤمنين، قال ذلك هو الخضر عليه السلام. ثم دفع الرقعة الى من قرأها على الحاضرين. فكان فيها مكتوب اللهم كما لطفت بقدرتك دون اللطفاء، وعلوت بعظمتك على العظماء، وعلمت ماتحت أرضك كعلمك بمافوق عرشك، وكانت الوساوس كالعلانية عندك وعلانية القول كالسر في علمك، وانقاد كل شيء لعظمتك وخضع كل ذي سلطان لسلطانك وصار أمر الدنيا والآخرة كله بيدك، اجعل لي من كل أمر أمسيت فيه فرجا ومخرجا، اللهم ان عفوك عن ذنوبي وتجاوزك عن خطيئتي وسترك عن قبيح عملي اطمعني أن أسألك ما لا أستوجبه مما قصرت فيه، أدعوك آمنا وأسألك مستأنسا وأنت المحسن الي وأنا المسيء الى نفسي فيما بيني وبينك، تتودد الي بالنعم وأتبغض اليك بالمعاصي ولكن الثقة بك حملتني على الجراة عليك، فعد بفضلك واحسانك علي يا أرحم الراحمين. قال فلما رجع المنصور الى بغداد استبدل عماله وحجابه ثم انه فتح الباب وسهل الجواب ولم يزل عاملا بقوله حتى مات

الروضة الخامسة — ما حكاه الفضل بن الربيع قال لما حج الرشيد حججت معه فبينما أنا نائم ذات ليلة اذ سمعت قرع الباب فخرجت فوجدته الرشيد فقلت يا أمير المؤمنين لو أرسلت الي أتيتك، فقال ويحك انه قد حاك في صدري شيء

فانظر لي رجلاً أسأله، فقلت ان هاهنا سفيان بن عيينة فقال امض بنا اليه فأتيناه فقرعنا عليه الباب . فقال من هذا، فقلت أجب أمير المؤمنين، فقال لو أرسلت اليّ أتيتك، فقلت خذ لما جئناك به يرحمك الله، فحادثه ساعة ثم قال له : أعليك دين ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين . قال يا أبا العباس اقض دينه، ثم انصرفنا من عنده فقال ما أغنى صاحبك شيئاً فانظر لي رجلاً أسأله، فقلت له الفضيل ابن عياض . فقال امض بنا اليه فأتيناه فسمعناه يقرأ آية في كتاب الله تعالى وهو يرددها فقرعت عليه الباب فأوجز في صلاته وقال من هذا، قلت أجب أمير المؤمنين، فقال مالي ولامير المؤمنين ؟ قلت سبحان الله أما عليك طاعته، فنزل وفتح الباب ثم ارتقى الى الغرفة فأطفأ السراج ثم التجأ الى زاوية وأخفى نفسه فجعلنا نجول عليه بأيدينا فسبقت كف الرشيد اليه فقال كف ما ألينه ان نجا من عذاب الله تعالى . فقال الرشيد خذ بما جئناك له يرحمك الله ؟ فقال يا أمير المؤمنين ان عمر بن عبد العزيز رحمه الله لما ولي الخلافه دعا سالم بن عبد الله ابن عمر ومحمد بن كعب القرظي ورجاء بن حيان . وقال اني قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا عليّ ما أصنع ؟ فعد الخلافة بلاء وانت وأصحابك تعدونها نعمة فقال له سالم بن عبد الله ان أردت النجاة غدا من عذاب الله تعالى فليكن كبير المسلمين لك أبا وأوسطهم عندك أخا وصغيرهم ولدا فوقر أباك وتحنن على أخيك وارفق على ولدك، وقال له رجاء بن حيان ان أردت النجاة غدا من عذاب الله تعالى فأحب للمسلمين ما تحبه لنفسك واكره لهم ما تكره لنفسك ثم مت متى شئت، فهل عندك يا أمير المؤمنين من مثل هؤلاء القوم من يأمرك بمثل هذا الامر ؟ واني لاقول لك هـذا واخاف عليك أشد الخوف يوم يزل القدم . قال فبكى هارون الرشيد بكاء شديدا حتى غشي عليه فقلت له يرحمك الله

ارفق بأمير المؤمنين ؛ فقال قتلته أنت وأصحابك وارفق أنا به ؛ فلما أفاق قال زدني؛ قال ياأمير المؤمنين بلغني ان عاملا لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه شكي اليه فكتب له عمر ياأخي اذكر سهر أهل النار في النار وخلود الأبدان فان ذلك يصرفك الى ربك نائما ويقظانا واياك ان تزل بك قدمك عن هذا السبيل فيكون آخر العهد بك ومنقطع الرجاء منك . فلما قرأ كتابه طوى البلاد حتى قدم عليه، فقال له ما أقدمك علي ؟ قال خلعت قلبي فوالله ماوليت لك ولاية قط حتى القى الله تعالى، فبكا هارون ثم قال زدني رحمك الله ؟ قال ياامير المؤمنين ان العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم جاء اليه وقال يارسول الله أمرني امارة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ياعباس ياعم النبي ان نفساً تحييها خير لك من امارة لاتحصيها ان الامارة حسرة وندامة يوم القيامة فان استطعت أن لاتكون أميراً فافعل . قال فبكا هارون وقال زدني يرحمك الله ؟ قال ياحسن الوجه أنت الذي يسالك الله تعالى عن هذا الخلق يوم القيامة فان استطعت ان تقي وجهك من النار فافعل واياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لرعيتك فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصبح غاشا لرعيته لم يرح رائحة الجنة قال فاشتد بكاء هارون فامسك عنه الفضيل، فلما افاق قال : هل عليك دين ؟ قال الفضيل نعم علي دين لربي لم يحاسبني عليه فالويل لي ان حاسبني والويل لي ان لم يلهمني حجتي، فقال الرشيد انما أردت دين العباد، قال لا فان ربي لم يأمرني بذلك بل أمرني أن اصدق وعده واطيع امره ، فقال تعالى ـ وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما اريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ان الله هو الرزاق ذوالقوة المتين ـ فقال هارون هذه الف دينار خذها وأنفقها على عيالك وتقو بها على عبادة ربك فهي من وجه الحل، فقال سبحان الله أنا أدلك على النجاة وأنت

تدعونني الى النار ، ثم سكت فلم يكلمنا فخرجنا من عنده فلما صرنا على الباب سمعنا امرأة من نسائه تقول : ياهذا قد ترى مانحن فيه من الضائقة وسوء الحال فلو قبلت منه هذا المال لتقوينا به على زماننا ؟ فقال لها انما مثلي ومثلكم كقوم لهم بعير يأكلون من كسبه فلما كبر وعجز عن الكسب نحروه وأكلوا لحمه ، قال فلما سمع الرشيد قال يافضل ادخل بنا اليه فلعله يقبل منا هذا المال ، فلما دخلنا عليه وأحس بنا خرج فجلس على السطح على التراب فجلس الرشيد الى جانبه وجعل يكلمه فلم يجبه فخرجت جارية وقالت ياهذا قد أذيت الشيخ منذ الليلة فانصرف عنه يرحمك الله ، قال فلما خرجنا من عنده قال لي الرشيد اذا دللتني فدلني على مثل هذا الرجل ، هذا يوم وليلة من أشرق الايام والليالي رحمة الله عليهم اجمعين

(وأما الطبقة الثالثة)

من الملوك فهم الاكثرون قلوبهم قسية وانفسهم عصية يورثون ويؤثرون اللذات على الامور الدينيات وفي المشاهدة منهم بالابصار كفاية عن الاخبار وقد انتهينا في كتابنا هذا الى ماحاولناه وأوردنا فيه ماأردناه واتينا بما ضمناه بعد ما أوضحناه وذلك وسع الطاقة وجهد المقل ، على الله أتوكل وبه أستعين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً الى يوم الدين — وكان الفراغ من نسخ هذا الكتاب الجليل يوم السبت المبارك ثاني شهر شعبان المعظم قدره من شهور سنة ١٠٧٤ من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام

وبحمد الله تم طبعه في أوائل شهر جمادي الاولى
سنة ١٣٢٦ وصلى الله على سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه وسلم

فهرست

(كتاب المنهج المسلوك في سياسة الملوك)

صحيفه

تمت

خطأ وصواب

وقع في هذا الكتاب بعض خطأ ومع انه ليس بالجوهري الذي يتوقف عليه المعنى فقد استدركنا فوته بالتصويب في السطور الآتيه

صحيفه	سطر	صواب	خطأ
٥	٩	الباب التاسع	البات التاسع
٩	٤	لا يتحقق	لا يتحق
١٠	٨	الظالم	المظالم
٢٥	١٣	هو أول وهي	هي أول وهو
٢٩	١٨	فان الذنب	فان الذب
٣٠	٤	عادات	عاداث
٣٢	٧	قال	قالا
٤٠	١٢	علي	عليا
٤٢	٣	عليهم	عليه
٤٥	١	الباب السادس	الوصف السادس عشر
٤٥	١٥	هادئة	هادية
٤٧	١	فجمح	فجمع
٥١	٨	اياه	ايا
٥٧	١٤	للملك من الغضب	له من الغضب
٥٩	٢١	ليس	يس
٦١	١٦	ينقل	ينتقل

صحيفة	سطر	صواب	خطأ
٦٧	٣	شيء	شى
٧٣	٥	تفرق	تعرف
٧٨	١٣	الوزير	الرزير
٧٨	٨	اشكاله	اشكائه
٨٠	١٨	ذلك	تلك
٨١	١	القوة	الفتوة
١٣٦	١٠	تحملهم	يحملهم
١٣٦	١٧	لم تأتني	لم تأتن

ʿAbd al-Raḥmān ibn ʿAbd-Allāh

Manhaj al-maslūk fi sayasat al-mulūk